السنة الثانية العدد ٥ ١ اذار سنة ١٨٩٩

المشرق

اتساع التأليف في الاسلام

لجناب الاديب عزتلو الامير شكيب ارسلان احد اعضاء جمعية المستشرقين الفرنسوية

لا اتعرَّض الآن لمقام ما امتاز بهِ سلف هذه الأمة وما حواهُ من العلم وما وسعوهُ من المعرفة وما بثُّوهُ من الانوار وما بثُّوهُ من اشعَّة الحكمة في آفاق الكرَة بحيث كانوا في الحقيقة «أمةً وَسطاً» في العلم بين اليونان الاوَّلين والافرنج المحدثين فوصلوا فيهِ بين السابق واللاحق وحفظوا ما خلَّفهُ الأوَّل وألقوهُ الى الآخر. فاتصلت باجتهادهم نسبة العلم ولم تنقطع بسعيهم اسانيد الحكمة. فإنَّ ذلك امرٌ قد عرفهُ الخاصّ والعامّ ونبَهٌ قد اشتهر في تواريخ الأيَّام. وليس من غرضي الآن قرعُ بابهِ ولا خوض عبابهِ. وانما قصدتُ بهذه العجالة التنبيه الى ما وصلت اليهِ صناعة التأليف في الاسلام من الاتساع والتشعُّب وادركتهُ من التبسُّط والتقصّي وكيف ترامت اقلام الكتَّاب الى ابعد مرامي النظر وانأى مطارح الفكر ممَّا يدلّ على ما بلغتهُ المعارف عندهم من العنجهيَّة والنموّ وما كانت عليهِ الحالة الفكريَّة من الارتقاء والسموّ. اذ ما من مرية ان كثرة التآليف عند قوم وتشعُّب الكتابة بينهم يتناسبان مع درجة ترقّيهم العقليّ وانَّ القلمَ ترجمانُ الفكر وسيرهُ ينطلق بقدر انطلاقهِ ويحتبس بمقدار احتباسهِ

ومن نقَّب عن آثار السلف واستقرى خطط اقلامهم وغاص على لآلئ اماليهم واظفرهُ الله بالاطلاع على بعضِ ما في نفيس الخزائن من تلك الدفائن علم أنَّهم قومٌ عرفوا قيمة الليل والنهار وقدَّروا قدر الاعمار فلم يضيّعوا اوقاتهم سدًى ولا قعدوا عن املاء الفوائد وأنَّما اشتغلوا وعانوا وسهَّدوا الجفون واجهدوا القرائح اكثر مرارًا ممَّا يقدّرهُ اعظم

الناس توفيرًا لحقّهم واشدّهم اعجابًا بفضلهم. ولقد قرعوا باب كلّ شيء. فلم يدعوا علمًا الّا اجالوا قداحهُ ولا فرعًا من فروع المعلومات الّا اوروا اقتداحهُ. فهم والحقّ يقال قد خدموا المعارف وصدقوها. وتسوّقوا العلوم وتداولوها. وشعشعوا الآداب وروّقوها. وان اقلامهم قد سوّدت من الصحف ما ابيضّ لهُ وجه المدنية ونضّدت من المجلدات ما لو جُمع لضاقت عليهِ المكاتب برحبها. فان كان لم يصل الينا جميعه بما أُغرق اكثرهُ في الانهار وأُحرق بالنار. وتعاورتهُ ايدٍ مختلفة من البوار. فليس عدم الوصول. بدليل على عدم الحصول. بلى لقد كتب القدماء مكاتب حدثتنا التواريخ الصادقة وانبأتنا الروايات المتطابقة ان بعضها أُلقي في دجلة عند دخول المغول الى بغداد فسدّ مجراها وجاز الناس على الكتب من جانب الى جانب كأنّها جسر معقود. وان بعضها استنفد عزم النار الآكلة مدةً غير قصيرة من الزمن حتى قضت قضاءها فيه. وأنهُ كان في عواصم العالم الاسلاميّ مثل بغداد وسمرقند ودمشق والقاهرة وقرطبة وفاس وغيرها من خزائن الكتب التي جمعتها همم الملوك والسلاطين ما لا يُحصيهِ الّا الله تعالى. وقد قيل انّ المستنصر العباسي وحدهُ نقل الى خزانة الكتب التي انشأها في المدرسة المستنصريّة على شاطئ دجلة من الكتب النفيسة والاصول المضبوطة مائتين وتسعين حملًا سوى ما نُقل اليها بعد ذلك حسبما رواهُ المؤرّخ ابن الساعي

وحسبك أنهُ لما كتب الامير نوح بن منصور السامانيّ الى الصاحب بن عباد يستدعيهِ اليهِ ليسلّمهُ مقاليد وزارتهِ كان من جملة أعذار الصاحب في عدم الاجابة أنهُ يحتاج لنقل كتبه خاصّة الى اربعمائة جمل. وهو فرد واحد من وزراء الاسلام اجتمع عندهُ هذا القدر من الكتب فما ظنّك بما اجتمع في مكاتب الخلفاء والسلاطين والامراء والوزراء والعلماء وخزائن المساجد والمكاتب الموقوفة لعامّة الناس. وجميع هذه الكتب الّا النادر الذي لا يُعتدّ بهِ هو ممّا خطّتهُ اقلام علماء هذهِ الأمة في جميع العلوم التي عرفوها حتى انّ من دخل مكاتب الاستانة العليّة في هذه الأيام وتصفّح فهارسها مع كون المحفوظ إنْ هو الّا تردٌ ممّا خلص من ايدي الحدثان وبقيّة عفا عنها الزمان ايقن ان المنشور من آثار القوم المتداول في ايدي الناس هو قُلٌّ من كُثر وجّة من بحر وان عرائس العربيّة بقيت في خدورها وان كثيرًا من ابكار بنات الافكار لبثت عوانس وراء ستورها وان الواصل الى الايدي من آثار القوم بالمقابلة مع هاتيك الكنوز المدفونة

والجواهر المكنونة لا يصلح ان يؤدي عنها حساباً ولا يهيئ لها صورةً في الذهن ولا يصحّ ان يكون مداراً للحكم. فانّ في تلك الزوايا خبايا لا تخطر في بال ومدهشات لا تدخل في حسبان ومن وقف عرف. والله يعلم انني كنت اترك كتب العلوم المعروفة والتي تسمى بالآلات واتجاوز ما اعلم ان التصنيف فيهِ شيء كثير الى ما اعلم انهُ فيهِ عزيز يسير فربّما وجدت في المكتبة الواحدة تآليف عديدة في فنون من العلم وضروب من الحكمة وشجون من القول قلّما يُظنّ ان كتبة الشرق اجالوا فيها قلماً او وطئوا لها عتبة فاذا هم قد اوسعوها بحثاً وسَبْراً. وقتلوها علماً وخُبْراً. وربّما وجدتُ صفحات باسرها تحصي كتبَ علومٍ ما كنت اظن المسلمين مصنفين بها الّا اشارات في حواشي الكتب ورموزاً في تضاعيف المباحث او بالكثير فصولاً في المتون الشهيرة بالاصول التي تمتّد اصحابها الاحاطة وذلك لما نظنّ من قلّة قيامهم على هذه العلوم واشتغالهم بها والامر فوق ما نظنّ وبعضُ الظن إثم وعدم الاطلاع آفة الحكم. ولا يُظنَّنّ ان ما نراهُ من مشهورات التأليف هو ملاك امر العربيّة

ولا ينبغي ان يكون شأن الاديب اذا بحث شأنَ الطفل الذي يرى الافق ممّا يمتدّ اليهِ نظرُهُ فيظنّ هناك مُنتهى الدنيا وقد خبأ الله وراء هذا الافق جبال الارض ووهادها واغوارها وانجادها وبحارها وانهارها وبسائطها وسهولها. واذا شبّ الطفل وضربَ في الارض علم انّهُ ما كان يرى من الدنيا الّا زاويةً تصغر عن ان تتحيّز في اطلس الجغرافية وانّهُ ما كان الّا في غرور. وما اطبقَ مثَلَ الطفل هذا على المتحذلقين الذين يخبطون فيما لا يعلمون ويحكمون على ما يجهلون ويَنحون خصوصاً على هذه العربيّة والكاتبين بها بالجرح والتعديل وهم لم يقرأُوا منها غير بعض المنشور وقد اكتفوا عن اللباب بالقشور. وزعموا انّهُ كافيهم في الحكم وانّهم على شيء من العلم. فأحيلُ هؤلاء المساكين اذ كانوا لا يستأنسون الّا بكلام الافرنج على مشاهير المؤرّخين من الاوربيين خصوصاً الذين بحثوا في الشرقيّات ليعلموا فضل الشرقيين وعلوّ كعبهم وبعد همّتهم في التصنيف. وحسبك ما قالهُ العلاّمة سديليو مؤرّخ العرب الشهير عندما افاض في ذكر احتفال المسلمين بالتأليف وتوسعهم فيهِ وبيّن درجة مزاولتهم للكتابة بخوضهم في جميع المواضيع وهو قولهُ: ان الامام جلال الدين السيوطيّ صنّف من الكتب اكثر ممّا يقدر كثير من الناس ان يقرأ طول حياته. وروى بعضهم انهم قسّموا تآليف السيوطي

على أيام حياته فاصاب كلّ يوم ثمانية كراريس وهو امرٌ يصعب تصديقهُ ولكن مهما يكن من المبالغة فيهِ فان تآليف الجلال السيوطي رحمهُ الله انافت على الاربعمائة بين كبير وصغير في كلّ علم وفنّ. ومع تعدّد التآليف العربية وتنوّعها فقد اطال الكتبة فيها الأعنّة وتوخوا الاستقصاء. وقلّ ان يوجد كتاب معروف او ديوان مشهور الّا وتعدّدت شرّاحهُ فانّ لديوان المتنبي اربعين شرحاً واحصيتُ لتسهيل ابن مالك ولكتاب سيبويهِ نحو ثلاثين شرحاً. ومن تآليفهم ما لا يوجد في التآليف العصريّة الاوربيّة اوسع منهُ بسطة واضخم حجماً. وكم تأليف عندهم تجاوز الاربعين مجلداً. وكتاب الايضاح لابي عليّ الفارسيّ شرحهُ الشيخ عبد القاهر الجرجاني في ثلاثين مجلداً وابن الدهان النحويّ في ثلاثة واربعين مجلداً وتاريخ حلب لابن العديم الحلبيّ روى اليونينيّ انّ بياضهُ يكون في اربعين مجلداً وتاريخ دمشق لابن عساكر ثمانون مجلداً. قال ابن خلكان: قال لي شيخنا الحافظ زكيّ الدين عبد العظيم وقد جرى ذكر هذا التاريخ وطال الحديث في امره: ما اظنّ هذا الرجل الّا عزم على وضع هذا التاريخ من يوم عقل على نفسهِ وشرع في الجمع من ذلك الوقت والّا فالعمر يقصر عن ان يجمع الانسان مثل هذا الكتاب (١

وروى ابن السبكيّ في طبقاتهِ عن تاريخ الطبريّ انّ ابن جرير الطبريّ قال لاصحابهِ: هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم الى وقتنا هذا. قالوا: كم قدرهُ. فذكر انهُ ثلاثون الف ورقة فقالوا: هذا يفنى الاعمار قبل اتمامهِ. فقال: انّا لله وانّا اليهِ راجعون ماتت الهمم. فاختصرهُ. وللطبريّ تفسير كبير كان بهذا القدر ايضاً فقصرت عنهُ هِمم الطلبة فلخّصهُ ايضاً. ومن بعض امثلة هذا المقام كتاب الايك والغصون لابي العلاء المعرّي الف ومائتا كرّاسة. قال بعضهم: انهُ وقف على المجلّد الاوّل بعد المائة. ثمّ انّ ابن عقيل الحنبليّ ألّف كتاباً ثمانمائة مجلّد يُظنّ انهُ اوسع ما أُلّف في العربيّة

وقد انافت تآليف ابي بكر الرازيّ على المائة. وروى ابن خلكان في ترجمة الشيخ ابي العبّاس احمد بن عمر بن سريج الذي كان يلقّب بالباز الاشهب من أئمة الشافعيّة ان فهرست كتبهِ كانت تشتمل على اربعمائة مصنَّف. ورُوي ان تصانيف الامام ابي بكر البيهقي بلغت في علم الحديث الف جزء. ومن المؤلّفين العظام بالعربية الحافظ ابو بكر المعروف بالخطيب صاحب تاريخ بغداد ذكر محبُّ الدين بن النجّار في تاريخ

١) راجع المشرق ٣: ١٠٧

بغداد انهُ صنَّف اكثر من ستّين كتاباً . وابو الحسين احمد بن يحيى الراوندي لهُ من الكتب المصنفة نحو مائة واربعة عشر كتاباً . والرئيس ابو عليّ بن سينا، لهُ من التصانيف ما يقارب مائة وذكر ابن خلكان في ترجمة الامير عزّ الملك محمد بن ابي القاسم المعروف بالمسبّحيّ الكاتب الحرّاني الاصل المصري المولد صاحب التاريخ المشهور انَّ تاريخهُ ثلاثة عشر الف ورقة . وذكر لهُ كتباً عديدة منها الف ورقة ومنها الفا ورقة ومنها ثلاثة آلاف ورقة وعدَّ من هذا النمط في فنون مختلفة بضعة عشر تأليفاً ثم قال: ان مصنَّفاتهِ بلغت الثلاثين ولو شئنا ان نحصي تآليف كبار الكتّاب من اهل هذا اللسان مثل ابي نصر الفارابي وفخر الدين الرازيّ . وحجّة الاسلام الغزاليّ . وجار الله الزمخشري وغيرهم من الائمّة لطال بنا القول وتناءت بنا شقّة الوصف ومن شاء استقصاء هذه الغايات البعيدة في التصنيف والوقوف على ذلك الشأو القاصي في حفظ العلوم بين دفّات الصاحف فعليهِ بكتب التاريخ واسفار الطبقات ومعاجم التراجم يجد كامنةً لهُ فيها العجائب والغرائب

وأمّا الذي ادار في خلدي هذا المنى حتى فاض على سنّ القلم هو ما إطّلعت عليهِ هذه المرَّة في مدينة دمشق وهو آية باهرة كتاب يسمّى بالكواكب الدراريّ تأليف ابي الحسن عليّ بن الحسين بن عروة الحنبليّ من اتباع الامام ابن تيمية يبحث في جميع العلوم لم اجد اشبهَ منهُ بالانسكلوبيدية تبسُّطاً واستقصاء . الا انهُ مختلف عنها في الترتيب على حروف الهجاء والمحفوظ منهُ في مكتبة الملك الظاهر اثنان واربعون مجلداً والظاهر ان الباقي المفقود اكثر من الموجود وانهُ يبلغ المائة والعشرين مجلداً لانهُ قد وُجد منهُ المجلد العشرون بعد المائة تاريخ تصنيفهِ سنة ثلاثين وثمانمائة للهجرة اشترك في كتابتهِ جماعة . امّا المجلد من هذا الكتاب فهو نحو ٣٥ كرّاساً تشتمل على ٧٠٠ صفحة من القطع الكامل . ومن الغريب انني لم اجد لهذا الكتاب ذكراً في كشف الظنون مع كونهِ امراً عظيماً ممّا يدلُّك على عدم الإحاطة وغيب كثير من فوائد اللسان عن الانتظام في عقود الفهارس وان ايدي الضياع قد عبثت بمعظم ما خلَّفوهُ من النفائس . ومن اقتصّ الآثار واستقصى الاخبار سقط على غرائب مدهشة وخوارق تكاد تكون معجزة فقدِّر كم أراق كتبة الشرق من المداد في خدمة النطق بالضاد وكم لهم بذلك من الشرف والاجر . يعنو لفضلهم كل ذي عزّ وفخر

نظرٌ عقليٌّ في الوحي

للاب لويس معلوف اليسوعي

(تتمة لما سبق)

٣

لكن الطبيعيين يردّون علينا مقالنا ويزعمون أننا اتينا بكلام ينقض بعضهُ بعضاً. يقولون : عجب ثمَّ عجبٌ. أيُعطي اللهُ الانسانَ عقلاً اي قوَّةً فاهمة ولا يمكّنهُ من الفهم؟ ذلك محال لانَّ فهم الانسان بسيط لا تنوّع فيهِ فكيف يجوز القول بان الانسان حاصل عليهِ ثم القول بأنهُ غير حاصل عليهِ وهذا هو عين التناقض

الجواب على هذا أيسر من ان يُقتضى لهُ طول البرهان. نعم لا تنوُّع في الفهم فامَّا ان يكون الكائن ذا فهم كالانسان وامَّا ان يكون لا فهم لهُ كالحيوان او الجماد. ولا توسُّط بينهما. ولكن ان لم يكن في الفهم تنوُّع ففيهِ تفاوُت ودرجات. نعم اعطى الله الانسان قوَّةً فاهمةً وقد مكَّنهُ من الفهم ولكن من فهم محدود محصور لا ينال كلَّ حقيقةٍ من الحقائق. وهذا امر بسيط جليٌّ لا عجب فيهِ بل العجب العجاب ممَّن بنوا المقالات المُسهَبة بل كتبوا الكتب الضخمة وشحنوها بالاستدلالات السفسطيَّة محاولةً نقض القضيَّة التي ذكرناها

بيدَ أننا لسنا ننفي عن الانسان كلَّ عمل فهميٍّ في شأن الوحي. انَّا نقول انهُ لا يفهم كُنه الحقائق الموحى بها وجوهرها وكيفيَّتها فقط. ولكن يمكنهُ بنفسهِ وبقواهُ العقليَّة الادراكيَّة ان يبحث عن الادلَّة التاريخيَّة وينظر نظرهُ في البراهين النقلية الى ان يتبيَّن لهُ جليًّا ان الوحي حصل لا محالة في زمن معلوم ومكان محدود وهذا يُجديهِ كلَّ الفائدة من حيث اليقين. أمَا ترى انهُ اذا ادرك ادراكاً ثابتاً راهناً انَّ الله تكلَّم وعرف معرفةً صادقة عليَّةً انَّ تلك وتلك الحقائق قد فاه بها اللهُ حكيم صادق عليم لا يبقى هناك مكان للريب والشكّ ويكون اليقين كاملاً من كلِّ وجه بل واثبت في حدّ ذاتهِ من اليقين الطبيعي الذي يتّصل اليهِ الانسان بمجرَّد فهمهِ. فانَّ هذا ربَّما يعتريهِ بعض الفساد والضلال امَّا ما فاهَ بهِ ربُّ الحقّ ذاتهُ فلا سبيل للضلال اليهِ

وربما يدور في خلدك ان تسألني وتقول: ان كان الله اوحى بالحقائق فلمَ يا ترى لم يوح ايضاً بالادلّة العقليّة على تلك الحقائق فيدركها العقل البشري ادراكاً اكمل واجلى جوابي انَّ الله لم يوح بالادلّة المذكورة لانهُ كذا شاء ولم يحسن في عينهِ ان يوحيها. أليس ربُّ الكون حرّاً في إسباغ نعمهِ؟ أليس لهُ لا لغيرهِ الحكم في انارة البصائر ام عدم أنارتها؟ ولا تظنَّ حرسك الله انَّ كلَّ ما نستصوبهُ نحن يكون عند ربّ العرش مُستصوباً مُستحسناً. وعلى كلٍّ فالعقل يُطلعنا على ان الانسان لا يحقّ لهُ الّا القناعة بما اعطاهُ ربهُ وانَّهُ من الجهل والغباوة ان تطمح عينهُ الى الحصول على كلّ خيرٍ او علمٍ فاتهُ. وذلك جواب لا شكّ كافٍ. وصوابهُ يزداد عندك اتضاحاً ان اعتبرت ان تلك الادلّة لو اراد ربُّكَ ان يوحي بها لما كانت لعمرك يتجلَّى بيانها الّا لاصحاب العقول الجبّارة والالباب الذكيّة ولما كان يفقهها من الناس إلّا الرهط اليسير لما تقتضيهِ بعض الحقائق من المباحث الفلسفية والاستنتاجات العقلية. وبناء عليهِ يكون الله بوحيهِ تلك الادلّة قد انعم بانوارهِ على بعض الناس وحرم منها القسم الاعظم منهم بلا ذنب

زد على ذلك ما اثبتناهُ من ان الانسان باعتقادهِ هذه الحقائق الفائقة الادراك يُخضع عقلهُ لله على الطريقة التي بيّنّاها

ومرجع كلّ ذلك الى انَّ الله لا حدَّ يحدّهُ ولا غاية يقف عندها كمالهُ خلافاً للانسان الذي هو من جوهرهِ ووجوباً عاجز القوى محصور الكمالات من كلّ جهة وفي كل اعتبار اعتبرتهُ. فمها أعلمهُ بهِ ربُّهُ ومهما أوحى اليهِ من الحقائق والادلّة فما يتّصل ولن يتّصل علمهُ الى الاحاطة بكل مفهوم ومن الواجب الوجوب المطلق ان يكون دائماً هناك وراء ما يفقههُ ويعلمهُ حقَّ العلم اموراً جمّة يجهلها او يُعمى عليهِ سرُّها

٤

بقي ان ندحض قول الفيئة الثالثة من الطبيعيين الذين يزعمون بان الوَحي لا فائدة منهُ للانسان. فاقول ان للوحي منافع جمة لا بل انَّهُ لازم لزوماً حتّاً ليقوم الانسان بواجباتهِ قياماً تامّاً

سرْ معي حفظك الله الى احدى مدارسنا واسمع ما يقال. أمَا ترى صغار الصبيان كيف يخوضون في اجلّ المباحث واسماها مقاماً أمَا تسمعهم يكرّرون على مسامعك في اهمّ الحقائق كحقيقة الله والنفس والواجبات والاخلاق والمبدأ والمعاد اقوالاً تفوق

حكمة وصوابًا كلَّ ما ارتأته حكماء السَّلف والخلف الذين لم تشرق على بصائرهم انوار الوحي. هؤلاء الحكماء قد ذهبوا كلَّ مذاهب الشكّ والضلال ولم يوصلهم طول البحث ومثابرة السهر الّا الى النزر اليسير من تلك الحقائق الهيّنة. وما بلغوا اليه من الحقّ كم وكم يتخلَّله من الاوهام الفاسدة والترّهات التي يكاد العقل لا يتصوَّر امكان صدورها عن رجال مثلهم

خذ مثلًا حقيقة المعبود فانَّك تجد انهُ لم يَقُل بوحدانيَّتهِ الّا العدد القليل منهم واذا تكلَّموا عن ماهيَّة الله وخواصّهِ اتوا بكلّ رأيٍ واهن. اذكر من ذلك القبيل اعظم فلاسفة القدم: سقراط. افلاطون. شيشرون. انَّهم لم يستقبحوا عبادة الالهة المتعدّدين كالمشتري والزُّهرة وزحل وباخوس والمرّيخ الخ. بل استحسنوها واعتدُّوا اكرامها من واجبات سكّان بلادهم. بل لم يروا ان يقضوا على ماكان يأتيه الناس في تعبُّدهم تلك الالهة من الملاعب الخلاعية والعوائد الوحشيَّة القطيعة التي تقشعرُّ لذكرها الابدان وينفر اليراع من التعبير عنها — امَّا ديمومة النفس فقلَّما اعتدُّوها حقيقة وصوابًا. حتى من اتوا على اثباتها ببعض البراهين لم يشسوا ان ارتابوا في امرها ارتيابًا لا شفاء لهُ ولم تكن ادلَّتهم على هذه الحقيقة لتمتنع الخواطر وتكتسب اذعان العقول. وكان شيشرون يقول انَّهُ كان يوافق افلاطون على رأيهِ في ان النفس لا تموت طالما كان كتاب ذلك الفيلسوف في يده ولكن متى كان يترك الكتاب جانبًا كان حالًا يتزعزع ركن اعتقاده ويتدكّ اندكاكًا. امَّا من جهة الاخلاق فقُل ولا حرج فان اولئك الفلاسفة قد علَّموا كل عارٍ واحلُّوا كل رذيلة. صيَّروا الظلم فضيلةً والخلاعة فرضًا مفروضًا. جعلوا الاموال مباحة والاعراض ألعوبة الفحش والعهارة. اجازوا تزوُّج الأُمهات بالبنين. اجازوا الاشتراك بالنساء الخ الخ. راجع تواريخ تلك الازمنة ترَ عجبًا

فاين حنظك الله تلك التعاليم بل تلك الاضاليل من الحقائق النيّرة السامية الطاهرة الجليلة التي اطلعنا عليها الوحي فامتلكت قلوبنا ودرَّبت في الهدى اعمالنا ودارت على ألسنة كبارنا وصغارنا ورتعنا في نورها البهيّ آمنين الضلال وعواقب الغيّ

ولا غرو. فانَّ الوحي ان دقَّقتَ في امره نظرك لهو اسهل واسطة لتثقيف عقول البشر واحسن طريقة لتبليغهم الحقائق يناسب عقول الناس كلهم عالمهم وجاهلهم ولا يفوق مدركهم مهما كانوا عليهِ من السذاجة وهو اقرب واوجز خطَّةٍ في ازالة الاوهام

ونشر التعاليم الحقة الخلاصيَّة اذ انَّهُ يكفي العقول مؤونة التنقيب والمطالعات ويجعلها على أمن من فوات الفرص او اضاعة سواء السبيل نعم انَّهُ آمنٌ وسيلةٍ في ذلك كلهِ لان المخبر بتلك الحقائق هو الله ربُّ الحقّ نفسهُ ومن علّمهُ الله لم يضلّ

اتقول بعد ذلك ان الوحي لا طائل تحتهُ ولا نفع منهُ

زدت ان الوحيَ ضروري ليس للانسان عنهُ غنى ان اراد ان يقوم بدينهِ قياما حسناً تاماً. وقبل ان نورد عليك البرهان في حقيقة هذه القضيَّة نذكرك ان الضرورة نوعان فمنها مطلقة ومنها غير مطلقة. تكون الواسطة ضروريَّة ضرورةً مطلقة ان لم يكن الحصول على الغاية دونها مهما تكبَّد الانسان من الجدّ والعناء. وتكون ضروريَّة ضرورة غير مطلقة ان امكن الحصول على الغاية دونها ولكن بمشقَّة عظيمة وبتعسُّر شديد وصعوبة هذا حدّها حتى ان معظم الناس نظراً لطبائعهم وخصائصهم لا يتجشَّمون تلك المشقَّات فعلاً ولا يقاومون تلك الصعوبات المقاومة الكافية بل تنحطّ دون تذليلها قواهم. وعليهِ يفوتهم بلوغ الغاية ويصبحون منها محرومين

فاقول ان الوحي لازم للانسان في اعتبارين: ان اعتبرنا ان الدين دين فائق الطبيعة كما انَّهُ قد حصل حقيقةً اي اذا جعلنا الكلام على حالة تفوق الطبيعة الانسانيَّة ونظرنا الى ذلك الدين الذي يجعل بين الانسان وربّهِ علاقات غير وفوق العلاقات الناجمة عن الطبيعة نفسها فعندئذٍ لا شكَّ في ان الوحي لا مندوحة عنهُ وانَّهُ لازم لزوماً مطلقاً كليّاً (١ اذ انَّهُ يصبح الواسطة الوحيدة لادراك ماهيَّة ذلك الدين الذي لا يمكننا الاطلاع عليهِ من مجرَّد النظر في طبيعة الاشياء بما انَّهُ يفوقها. وعلى تلك الماهيَّة التي تفوق طور الاستدلالات العقليَّة تترتَّب فروض واعمال وخطط تحتاج في امر معرفتها الى ايعاز ربَّاني

هذا في اعتبار الدين الفائق الطبيعة. امَّا ان حصرنا بحثنا في الدين القائم على العلاقات الطبيعيَّة بين الخالق والمخلوق والتي يمكننا ادراكها بمجرَّد قوانا العقليَّة فالوحي حتى في هذا الاعتبار لازم لزوماً حقيقيّاً وان كان غير مطلق كالسابق. وهو لا مندوحة عنهُ من اوجهٍ لحسن القيام بالدين الطبيعي هذا نفسهِ وتمام الانقياد لنواميسهِ

---

١) اننا نعتبر لزوم الوحي من جهة الانسان لا من جهة الله لان الله عزَّ وجلَّ حرٌّ في وحيهِ

واليك البرهان الذي يؤيد لنا هذه الحقيقة ويكشف لنا الحجاب عن يقينها

اقول انك ان اعتبرت ان الدين قائم على ان يعرف الانسان ما بينهُ وبين ربه من الملاقات وان يسير بموجب ما يترتب على تلك الملاقات من الفروض والواجبات. رأيت انهُ هناك حقائق وواجبات وعلاقات يكاد يعجز الانسان عن ادراكها وفقهها كما يجب ان لم يرسل الباري عليهِ انوار الوحي. يجب على الانسان ان يعرف حقائق الدين الجوهرية كلها وان يعرفها دون عظيم مشقة وعناء ودون شك وارتياب وضلال. يجب ان يُدرَّب تدريباً حسناً ظاهراً بيّناً نحو غايتهِ القصوى الخ. والحال ان كل من بحث عن هذه الحقائق وما شاكلها بحثاً تاماً علمياً يقرّ لك ان تبيانها وتقريرها ودرَك كل ريب عنها لهو امر دقيق طويل صعب المراس. ولست اخشى ان اقول ان ادراك كل انسان لها الادراك الكافي الحسن يكاد ان يكون مستحيلاً. اينما اتجه العقل لينظر في الحقائق المتعلقة بالدين — وكلامي عن الدين الطبيعي نفسهِ — يصادف اسراراً غامضة. طبيعة الله سرٌّ غامض وكذا ماهية الانسان سر غامض. نعم يتيسّر للعقل ان يبحث في هذه الشؤون بعض البحث لكنهُ يكلُّ دون استقصاء المرام من اليقين ولا يزال قلقاً تتلاعب بهِ رياح الشكّ والارتياب. وكذا قُل في امر ابديَّة العقاب والمثاب وفي شأن السعادة القصوى وفي كيفيَّة التوفيق بين سابق علم الله وحرّيَّة العبد واختيارهِ وفي وسائط ارضاء العليّ واستعطافهِ الخ. تلك لعمرك حقائق عديدة المُقَد خفيَّة الطوايا ولا يُتَّصل الى تقريرها كما قلنا الا بالادلَّة الطويلة والبراهين الدقيقة فيسهل في كلّ ذلك الحَيدُ عن جادَّة الصواب والتهوُّر في وهاد الضلال. وهذا امرٌ بيّن لا يرتاب فيهِ احد ممَّن طالعوا كتب الذين خاضوا في هذه المواضيع بين السلف والخلف ولم يرضوا الاهتداء بهدى وحي ربهم. خذ كتبهم وأجِل فيها لحظك واخبرني بما تجد عندهم: آراء تتشعَّب ومذاهب تتباين واقاويل تتناقض وتتعاند. فان سألتُ زيداً عرض عليَّ مذهبهُ وما يرتئيه الصواب فأُصدّقهُ. وان خطر لي بعد ذلك ان أسأل عمراً في الموضوع ذاتهِ أعلن بأنَّ مذهبهُ يعاكس مذهب زيد من اوجه وان الصواب ما يقولهُ هو لا ما يتوهّمهُ القوم. فذاك تناقض تامٌّ في حقائق تهمُّني جدًّا ولا بُدَّ لي من ادراكها ادراك اليقين وهي ذات الشأن الاعظم عندي فمن يقوم لي حَكَماً بين عمرو وزيد ومن يدلُّني على الهدى ويرشدني الى جادَّة الحقّ والّا اصبحتُ:

كريشةٍ في مهبِّ الريح قائمةٍ لا تستقرّ على حالٍ من القلقِ

وهكذا يغدو كلّ انسان يسعى وراء دينه وتضحي الاديان متعاكسةً متناقضةً لا وحدة فيها ولا انتظام فتكون هي المُبعدة عن البارئ لا المُقرّبة الى وجهه جلّ جلالهُ

أَلستَ ترى ان هذا اعتبار حقائق الدين وصعب امرها يقضي لا محالة بوجوب نبإٍ سماويٍّ ينشر على الورى اشعَّة شمس الهدى فيبدّد ظلمات الجهل والريب التي لولا رحمة الرحيم لكان العالمون فيها طول المدى يتسكّعون

وان اعتبرت ماهيَّة العقل البشري نفسه يتجلى لك صدق مقالي اجتلاء. أكمل. حقائق الدين ليست لعمرك باقرب مورداً وابهى مجتنًى من حقائق الفنون والعلوم الطبيعيَّة فانظر الى عقل الانسان كيف انهُ توصّل الى هذه ومنهُ احكم على كيفيَّة توصله الى تلك. قد لبث العالمون سنين واجيالاً لا يُفكّرون في تلك العلوم والفنون ولا يحرّكون اليها عامل البال. ولمَّا اخذوا يعتنون بها لم تنكشف لهم بعض اطراف الحجاب عن حقائقها الا بعد الاتعاب الشاقّة والمباحث الطويلة. وكم ضلّوا في مساعيهم وكم اكتشفنا لهم من الأوهام. بيدَ انَّا نحن ايضاً في عصرنا هذا الذي ذلّل في سبل نشر العلوم والمعارف اشدّ المصاعب والموانع مَن منَّا يمكنهُ ادراك حقائق العلوم ان لم يكرّس لها عملاً وسهراً طويلاً ان لم يقضِ العمر في البحث والتنقيب وربَّما فاتهُ بلوغ الوطر. وعلى كلٍّ فلا يفوز بالمنى من ذلك الا الرهط القليل. على انَّ هذه الصعوبات وهذا العجز عند معظم القوم عن الاحاطة بالعلوم والمعارف ليس من شديد طائلٍ تحتهُ ان وجّهنا النظر الى المبادئ العُليا والغايات القُصوى التي خُلق الانسان لنوالها. ولكن لا يحقّ هذا القول بالنسبة للدين والحقائق المختصَّة به. فان حكمة ربّك وعنايتهُ تقتضيان ان كلّ انسان يكون قادراً على معرفة العلاقات القائمة بينهُ و بين مبدعه وهو يصعب عليه ذلك جدًّا إذن لم يبقَ طريقة إلا الوحي الالهي يكاد الانسان ان يكون لهُ غنًى عنهُ حتى ولو افترضنا الدين ديناً طبيعياً

ولعلّك تعترض عليَّ وتقول: انَّ في عصرنا بعضاً من رجال العلم يستدلُّون بمجرَّد الادلَّة العقليَّة على الدين الطبيعيّ وما يقتضيه من الواجبات. اذ هؤلاء العلماء لا حاجة

لهم الى الوحي الرَّبانيّ. بل ويوسعهم ان يبلّغوا القوم ما اوصلتهم اليه مباحثهم العقليَّة فيصبح الجميع على غنًى عن كلّ وحيٍ لا يعود منهُ نفع للبشر

اجيب اوّلًا: انَّ علماء عصرنا قلّما يفوقون علماء الاعصر الغابرة في اطالة النظر وإعمال الفكر والتنقيب عن الحقائق التي نحن بصددها. وقد مرَّ بك كيف ان الغابرين ضلّوا سواء السبيل وتلاعبت بهم كل اهواء الضلال. وان وُجد بين علماء عصرنا وحكمائهِ من نال حظًّا اوفر من ادراك الحقّ وبلغ منهُ بعض البلوغ فلا تظنّ انَّهُ اتّصل اليه بمجرَّد قواهُ الشخصيَّة بل كن على يقين انَّهُ استنار بانوار الوحي التي تحيط بهِ من كلّ جانب وتجلّل قممَ الابصار في كلّ أمّة ومكان. ايُّ عالم يبحث مباحث عقليَّة تظنّهُ اعزأك الله لم تبلّغهُ تعاليم ربّ المجد ومصدر كلّ حقٍ ربّنا ومخلّصنا ابن الله الحي؟ ايّ عالمٍ لم يعِش رغمًا عنهُ في انوار شمس العدل والصَّلاح والهدى التي اشرقت على الكون مذ تكلّم ربّك وسار بين الناس واطلعهم على ما انطوت عليه اركانُ العُلى من الحقائق السامية الخلاصيَّة؟

على أنّك لو دقّقتَ النظر وبحثت عمّا اتّصل اليهِ اولئك الذين حاولوا في عصرنا اقامة دين لهم من دون ان يُذعنوا لوحيٍ فعندها يتّضح لك مرَّةً أُخرى عمى الانسان وعجزهُ عن ادراك الحقائق الدينيَّة. فمنهم من ذهب الى انَّهُ ليس من الواجب على الانسان ان يعبد ربَّهُ عبادةً باطنةً باخضاع العقل والقلب. ومنهم من يزعم ان العبادة الخارجة ومظاهرها امر فارغ لا طائل تحتهُ ولا داعي لهُ. يقولون بان لا فرق جوهري بين الصلاح والطلاح بين الفضيلة والرذيلة وبين البرّ والعار. يقولون بانَّ كلَّ امرٍ يُباح للانسان عملهُ وليس عليهِ ان يهرب الّا ممَّا يسبّب لغيرهِ ضررًا او يجحف بالحقوق المادّيَّة. يقولون ايضًا ان الاله ليس الهًا عادلًا رحيمًا مثيبًا عن الخير معاقبًا على الشر زاعمين انَّهُ اعلى وارفع من ان يهتمَّ بشؤون البشر. ومنهم ايضًا من يذهب الى انَّ النفس تموت موتَ الجسد فلا حاجة لإتعاب القلب بما بعد الممات الخ

فترى من مجرَّد ذكر بعض اضاليلهم في هذا الشأن انَّهم قصَّروا عن بلوغ الغاية ولم يقووا إلّا على اظهار ضعف الانسان وشدَّة عوزهِ الى وحي ربّهِ

ولكن دَعنا نفترض افتراضًا جدليًا ان العلماء تمكَّنهم مساعيهم ومباحثهم العقليَّة بمعزل عن الوحي من الاكتشاف على دينٍ طبيعيٍّ صادق لائق بالبشريَّة ومَن فطرها.

أتظنّهم يقدرون على نشر دينهم بين الناس واطلاعهم عليه. أتخالهم يتجشّمون الاتعاب والاسفار والهموم في سبيل افشاء ذاك الدين في الاقطار والامصار الشاسعة. بل اي نفع يكون لهم من ذلك وأيّ حاثّ يحثهم على هذا المشروع

وان هم رضوا القيام باعباء هذا الامر فايّ طريقة يتّخذونها في سبيل اقناع الناس بصدق مقالهم سوى البرهان والادلّة العقليّة. وهذا لعمرك سبيل لا يُجدي نفعًا ولا يضمن لهم نجاح المسعى. لأنّ الناس معظمهم لا استعداد لهم ولا مقدرة على فقه البراهين والادلّة التي يجب ايرادها لتأييد هذه الحقائق. وعندها يلتزم كل من يعجز عن فقه البراهين ان يؤمن بما يقوله لهُ اولئك العلماء ناكرو الوحي وان يذعن لهم مسلّمًا بصدق كلامهم. ولكن هذا يكون عين الظلم والاعتساف. لأنّهُ ان لم يكن الانسان يُدرك بعقله صواب مقالهم فبايّ حقّ يلزمونهُ باعتقاد ما يرتأونهُ ولِمَ يا ترى يؤمن بكلامهم ولا بكلام غيرهم. بل لِمَ لا يقتصر على ما يلوح لخاطره من الصواب دون ان يركن الى غيره في معتقداته وتعبّده. اذًا يصبح الناس وكل منهم يتديّن بما يحلو لهُ فيكون لك دينك ولي ديني ولكلٍّ دينهُ وهنالك كما لا يغرب عن فهمك النيّر امرٌ بيّن الضلال لا يقف عنده من آمن بوجود اله واعترف بوحدانيّته

بقي أنّ الوحي ممكنٌ نافعٌ لازمٌ. وبما ان الدين لِما مرّ بك واجب وجوبًا كليًا في نظر العقل فينتج ان الوحي ايضًا يجب الاذعان لهُ والعمل به. هدانا الله بهداه الى كلّ ما ارادهُ من الخير والسعادة

البواسير واكتشاف دواء جديد لها

للدكتور نابوليون ماربني

عرّبها حضرة الاب انستاس الكرملي البغدادي

في تعريف البواسير واقسامها وتولدها

١ (لُغويّة اللفظة)* البواسير جمع باسور قال جمهور اللغويين: « وقد تُبدل السين صادًا فيقال باصور ». لكنهم لم يتفقوا على اصل الكلمة. قال احمد المقّري الفيّومي:

* القطعة الاولى مع الحواشي للمعرّب

« قيل غير عربي » . وقال صاحب شفاء الغليل: « الباسور مرض معروف تكلّمت به العرب. قال ابو منصور: احسبهُ معرباً وصاحبهُ مَبسور كما وقع في حديث البخاري وصحّحهُ الشُرّاح. وقول الاطباء وبعض العوام: « مُبَوسَر » خطأ » (اه بحرفه) . اقول: « امّا من انّ بعض اللغويين قالوا انهُ معرَّب فلم نقف على اثر ذلك في اللغات التي اخذ عنها العرب. فهي ليست تركية ولا فارسية اذ هاتان اللغتان تستعملان اللفظة العربية عينها وتعترفان بانها ليست من اوضاعهما بل وتقولان بعربيَّة اصلها. وليست ايضاً رومية وهي فيها hæmorrhois ولا يونانية وهي فيها αἱμοῤῥοΐς ولا شيئاً من اللغات الافرنجية الحديثة فلا يمكن اذاً ان تكون الّا عربية محضة مأخوذة من بَسَرَ القرحة اذا نكأها قبل النضج (القاموس) لان صاحبها يكون دائم البسر لها طوعاً او كرهاً عمداً او قسراً. ثم حُمل صوغها حملَ بعض اسماء الادواء او ما اشبه الادواء بأحداثها ووُزنت وزنها فجاءت كالاسماء المشتقة من الافعال المتعدية على وزن فاعول فقالوا باسوراً كما قالوا ناسوراً وداحوساً وكابوساً وجاثوماً وضاغوطاً ونحوها. والعامّة من البغاددة تسمّيها بهذا الاسم ومنهم من يسميها بالماصيل وهي تصحيف « مايَه سيل » او « مايا سيل » التركية العامية ومعناها قرحة تُسيل المادّة. فاحفظ ذلك »

٢ُ (توطئة) ان الغاية من هذه الخلاصة هي ان أُبيّن للعامة من الناس سبب هذا المرض وتولُّدهُ وبالاخص كيفية معالجته لقشوة بينهم وان اعرض على القرّاء من اطباء وغيرهم ما جاء به الطبّ حديثاً بهذا الموضوع

٣ُ (تعريفها العلمي) البواسير التهاب مزمن لبطانة العروق الموجودة في ناحية المقعدة من شأنها ان تسبب نزفاً من تلقاء ذاتها وهو نزيف خاص بها

٤ُ (اقسامها واسبابها) قد قسم الآسي النطاسي دانيال موليار Daniel Mollière البواسير الى قسمين وهما بواسير اصلية (Hémorroïdes idiopathiques) وبواسير فرعية (H. symptomatiques)

(أ) (البواسير الاصلية) لهذه البواسير ضربان من الاسباب وهما الاسباب المهيئة والاسباب العاملة. فالاسباب المهيئة هي: ١ُ العمر وعليك ان تحلّهُ المحلّ الاوّل في مصف الاسباب المهيئة للبواسير لان الكهولة والشيخوخة تؤثران كل التأثير في بنية

الانسان وان لم يسلم منها الاطفال رأساً . ٢ً المسكرات والاطعمة الكثيرة الغذاء والافراط في تخير اللحوم السوداء (٢ . ٣ً الوراثة التي كان لها عند الاقدمين القدح المعلّى بين اسباب هذا الداء . وقد ثبت اليوم ان الوراثة لا تفعل رأساً على توليد البواسير بل انها تختطُّ لها في البنية خطة لا غير

امَّا الاسباب العامة فهي اعتقال البطن ووجود اجسام غريبة في المستقيم والصَّدمات الخارجيَّة وتهييج ناحية الدبر وشرب بعض المسهلات وبالاخصّ دهن الخروع والأدوية المدرَّة للطمث وغير ذلك

وهذه الاسباب التي اتيتُ بذكرها والتي نوَّه بها اغلب الاطباء اصحاب التآليف التي يُعتَمد عليها في التدريس ليست بالاسباب الحقيقيَّة المولدة للبواسير رأساً وعليه فاني أستأذن الادباء لأذكر لهم في هذا الصدد راي العلامة اوزين (Dr Ozenne) وهو رأي أستحسنهُ كلَّ الاستحسان وأُوافقهُ كل الوفاق قال: « اذا بحث الانسان بحثاً نعماً بالخبر لا بالخَبر ما في هذه العوامل من الفصل الحقّق المدقّق في توليد البواسير انكشفت لهُ الشكوك عن ظواهرها الكاذبة او اقرَّت للباحث ضعف فعلها بخلاف ما يثبتهُ لها جمهور الأطباء . فبجانب الإثبات الذي لم يُحص حقيقتهُ الاختبارُ بالمعالجة قد أبدى البعض تخمُّنات وتخرُّصات ان لم تُنْبَذ كل النبذ ظهريًا فتصبح نسياً منسياً لا يُمكن ان تثبت ألَّا بان تؤوَّل تأويلًا يختلف عمَّا أوَّلهُ السابقون . ونقول هذا القول عينهُ فيما يتعلق بتهييج ناحية الدبر او بالشُّخوج التي تعرض فيها . غير ان ما يجب ان يدوَّن بين الامور المحرَّرة هو وجود عاقة حقيقيَّة تحول دون حركة نظام دم عرق الكبد في بعض هذه الاحوال مثلًا في عارض اعتقال الطبيعة المستطيل المدَّة مهما كان اصلهُ . اه

(ب) (البواسير الفرعية) ان هذا الضرب من البواسير يكون غالباً مع علَّة أُخرى . وعليه فيجب على الباحث ان ينظر اليها نظرهُ الى ادلَّة مرض لا غير . ولنسرد الآن على القرَّاء سرداً مجملًا الامراض التي تنشأ عنها هذه البواسير الفرعيَّة التي هي

٢) اللحوم السوداء عند الاطباء هي لحوم بعض الحيوانات التي يضرب لونها الى السواد كلحم الارنب ودجاج الغاب المسمى عندنا بالفرّار والخنزير البري

بمنزلة الادلّة لها متأثرين بذلك التطاسي دانيال موليار المشار اليه وقد رتّبها احسن ترتيب بالصورة الآتية: ١ً امراض اعضاء كالثُّنة (١ التهاب المستقيم المزمن والزحير والفولوفوس (٢ وتضيق المستقيم والتهاب المثانة المزمن وتضخم زيق المثانة (٣ وتضيّق الإحليل وجميع علل الرحم. ومن بين اعضاء الثُّنة الصغرى فالرحم المعتلّة هي لا شك من الاسباب المولدة للبواسير في اغلب الاحيان. ٢ً امراض اعضاء ما وراء المريطاء كالسرطان وجُسأ الكبد (٤ وخراجة الكلى. ٣ً امراض اعضاء الصدر كالامراض القلبية والربو

٥ً (تولّدها) قد ذهب العلماء في تولد هذه العلّة ثلثة مذاهب. فالمذهبان الاولان قديمان ونبذهما خير من التعرّض لذكرهما لانهما لم يقرّا على قرار مكين ولا يؤيدان ملاحظات المعالجة. ولا يمكنني هنا ان اغضّ الطرف عمّا نطق به العلامة في الطب اوزين المذكور فان كلامهُ البليغ يفنّد كل التفنيد راي كل من خالفهُ فقد قال ولله درّهُ من قائل: « اذا تسارع المرء في ان يقول بصحة بعض البراهين التي ظنطن بها بعض المتشدقين إدعاماً للراي الاول او للراي الثاني ودقق في تأويل بعض أحداث

١) الثُّنة هي المسأة عند المحدثين بالحوض ناقلين في ذلك الكلمة الافرنجية (Bassin) الى العربية. وهذا النوع من التعريب لا تأنف منهُ اللغة العربية لكن لمّا كان لها مقابلًا في هذه اللغة كانت تلك اللفظة الدخيلة في معناها لا في لفظها من الزوائد لا بل من بضاعة اللغة المُزجاة فيجب اذًا نبذها من الكتب العربية واستعمال الكلمة الفصيحة المذكورة فلا تنفل عنها. وان قال لنا قائل بانّها لم تَرِد بهذا المعنى عند العرب استشهدنا بالتاج اذ قال صاحبهُ في مادة قطن في شرح حديث آمنة: ما وجدتهُ في القَطَن والثُّنّة ولكنهُ كنت اجدهُ في كبدي. قيل: « القَطَن اسفل الظهر والثُّنّة اسفل البطن. وقيل: القَطَن ما عرض من الثَّبَج: وفي الليث: هو الموضع العريض بين الثبج والعجز ». (قلتُ): وهذا يثبت كلامنا لان الثُّنّة هي مستودَع الجنين

٢) كذا عرّب ابن البيطار كلمة Polype في مفرداتهِ في مادّة « كَوف » وسماها ايضاً بالزائدة الكثيرة الأرجل وهذه معنى الكلمة اليونانية πολύπους

٣) التضخّم هو ما يسميهِ اطباء الفرنج بكلمة Hypertrophie. وزيق المثانة هو المعروف عند البعض بكلمة بروستاتة الافرنجية Prostate وهي من الكلم التي لا يُحتاج اليها بالعربيّة

٤) الجُسأ جمع جُسأة وهي صلابة تحدث في الكبد وهي Cirrhose hépatique بالفرنسيّة ومن العجب ان بعض الكتبة نقلوها بلفظها الافرنجي مع وجود لفظة تقابلها عند العرب

التطبيب التي استنصروا بها تمكيناً لما أسسوهُ فانهُ يأتي بأمرٍ فريٍّ في الحقائق العلمية وكذلك يفعل اذا شاطر كل المشاطرة اصحاب كل من هذين الزعمين القائلين بانهم كشفوا القناع عن محيّا الحقيقة في تولُّد البواسير. فان اردت ان يكون الامر كما تشاء فمن اللازم ان تكون هذه الاراء الغريبة صائبة في سهامها والّا فان طاشت عن مَرماها اصبحت في خبر كان. والحال ان من المحقَّق الذي لا يشوبهُ رَيب ومن المثبت المحصَّل المُنزَّه عن الرَجم والغيب انهُ لا يمكن ان يُدعم احدُ هذين الرأيين بدعامة التعميم فهذا هو اذًا مَغمَزُهما. وعليهِ فلا يُقبلنَّ رأي من الاراء في موضوع تولُّد البواسير الّا وتكون سهامهُ كلها صائبةً والّا عُدَّت من النابيات عن الهدَف او من الصائبات عرَضاً وهذا لا يُعتدّ بهِ ». اه كلامهُ

وقبل ان اشرع في ابداء الرأي الثالث المعروف بالرأي العصَبي استلفت الانظار الى ما ذهب اليهِ احد الثقات في الطبّ وهو العلامة كِنُو (١ فانهُ يرتئي بان البواسير هي غالباً من أصلٍ عَفِنٍ. واليك نصّ كلامهِ: « قد كتبتُ في كتابي في اصول التشريح في المجلَّد الثاني: ان الشرط الجوهري في نشوء الدوالي هو تغيُّر جدار العرق او التهاب بطانة العرق. وسبب هذا التغير يختلف بصُوَرٍ شتَّى. غير ان التهابَ بطانة العرق يكون صادراً عن اصلٍ جراحي كما في الشجاج النَغِرة وانهُ يعقب البُطاحيّ (٢ وتعفُّن الدم في

---

١) (Quénu : *Bulletin Soc. Anat.*, Fév. 1892, p. 107)

٢) البُطاحيّ هو ما يسمَّى اليوم عند الافرنج بالحمَّى التيفوئيدية (Fièvre typhoïde) وقد عثرتُ على هذه الكلمة في اثناء رحلتي الى البصرة فاني كنت قد عُنيت بتدوين الالفاظ التي تطرق سمعي للمرة الاولى . فكان من جملة ما دوَّنتهُ هذه اللفظة وذلك ايام كان التيفوس (typhus) وهو البُطاح والحمَّى التيفوئيدية وهو البطاحيّ كثيرَي الحدوث بين الاعراب الموجودين على طريق البصرة. فلمَّا وقفتْ الباخرة للشحن أتى طبيباً فرنسياً كان في الباخرة جماعةٌ من مرضى الاعراب فطلب مني الآسي ان اكون لهُ ترجماناً في تلك الساعة فكان بين المرضى أربعة مصابين بالبُطاح وعشرة مصابين بالبطاحيّ الى غير ذلك من الامراض. غير اني لجهلي معنى الكلمتين المذكورتين قلت للطبيب: لا ادري ما يريد هولاء المرضى بالفاظهم الغريبة. فما نسي هاتين الملتين: قال هولاء الاربعة مصابون بالتيفوس واولئك العشرة مصابون بالحمى التيفوئيدية فللحال علّقت هاتين الكلمتين على كنأشتي. ولما قفلتُ الى بغداد راجعاً ودوّنت الالفاظ التي سمعتها تعجبت مما تحققته في كتب اللغة عن هاتين اللفظتين وانطباق معناهما على ما نطق بهِ لنويو

الولادة. او انهُ يتأثر فسادًا مهما كان. اما النتيجة فهي واحدة اي ظهور نسيج ملتحم لا حياة فيه بدلًا من جدار كان سابقًا فعَّالًا لتدفق ماء الحياة فيه وَلِما كان فيه من المرونة الطبيعيَّة ولتجمُّع قواه. وعليه فاذا اعتبر المرء حق اعتبارها تغيرات البِنْيَة التي يُحدثها المرض تجلَّت لهُ الحقيقة بمحاسنها الفتانة وقالت لهُ: لا تطلبنَّ لعروق الاست سببًا بعيدًا عنك وهو منك اقرب من عصا الأعرج منهُ. فالسبب الذي ذكرناه بعيد هذا هو هو الذي لهُ اليد الطولى في التغيرات والالتهابات

« افليس الشَّرْم او الطرف الاسفل من المستقيم هو من بين سائر انحاء الجسد اكثرها تعرُّضًا لعوامل العفونة اوَ ليس الجراثيم المفسدة لا تنقطع والإسفاف لا يرتدع اذ يحصل من ادنى سحج او من ادنى تنطُّز. وما قولك في الجروح الخفيفة التي لا بُدَّ منها في التغوُّط العسر. فلعلّ رأينا ان هذا هو التأويل الصحيح للعوامل المولدة لاحتباس الطبيعة

« ويسهل علينا ان ننتظم في سلك هذه الاسباب جميع الاسباب التي اشار اليها الثقات من العلماء كألنغام (Allingham) وان وُجد بين هذه الاسباب ما تظهر لاول وهلة متضادة في ما بينها. واذكر بجانب اعتقال الطبيعة الذَّرَب والسيلانات المختلفة وقلَّة النظافة والتقصير في الاغتسال والاستنجاء بكاغد المطبعة الخشن والتهيُّج الحاصل من دودٍ في البطن والإفراط في المسهلات الخ. ولا يعترضنَّ عليَّ مُعترضٌ

العرب قال صاحب التاج : « البُطاح كغراب مرض ياخذ من الحمَّى. كذا في التهذيب نقلًا عن النوادر. ومنهُ البطاحيُّ بياء النسبة وروي عن ابن الاعرابي انهُ قال: البطاحيُّ ماخوذٌ من البطاح وهو المرض الشديد ». اه. وقال صاحب محيط المحيط : « البطاح مرض ياخذ من الحمَّى ومنهُ البطاحيُّ وهو علة تشبه البرسام » . اه . اقول وبالحقيقة ان البطاحيَّ يشبهُ البرسام وهذه الاعراض تظهر على ما قالهُ اطباء الافرنج في بدء الطور الثاني من المرض. هذا وقبل ان آتي بغداد سألت احد اللغويين في البصرة عن معنى البطاح والبطاحيّ فشرح لي اعراض المرض على طبق ما رأيتهما في المرضى ثم سألتهُ عن سبب تسمية هذين الداءين قال : « لانهما يكثران في بطائح البصرة (وبطائح البصرة معروفة الى يومنا هذا بهذا الاسم وبالمعنى الذي يفسرهُ اللغويون) ثم قال: ولعلَّهما سُميا كذلك لان اصحابهما يبقون منبطحين على الارض عند اشتداد المرضين فيهما ». اه. اقول ولعل هذا الاديب قد أصاب في تعليل معنى اللفظة. فان صوَّبهُ اللغويون المحدثون أشكرهُ على ما احسن بهِ اليَّ

بقوله ان للوراثة أثرًا فعَّالًا قلت: ان هذا التأثير يُستدلُّ عليه كما في اغلب الامراض بقابلية اعظم لاحتمال مفعول الاسباب الخارجية وبسهولة اعظم لتوليدها

« والخلاصة اني لا اريد ان أكون متعصبًا لرأيي بل اقول انهُ من المناسب ان ننظر من الآن وصاعدًا الى مسئلة تولُّد البواسير بغير العين التي نظرنا بها اياها الى اليوم فالتهاب بطانة العروق هو عماد المسئلة وينتج عن انسلال جراثيم غريبة في جهات المقعدة ». اه

واذ قد بيَّنَّا ذلك فلننتقل الآن الى شرح الرأي المصيّ بتباطوء الاغتذاء. وهو اصحُّ من سائر الآراء، واكثرها إقناعًا وهو رأي حديث قد تشبَّث بأذياله أثبات الاطبَّاء وتُطيهم. وهو رأي من الواجب ان يتعلَّق بعُروته الوثقى كلُّ من حاول تجنُّب هذه العلة المُملَّة علَّة البواسير لا بل هو رأي مفيد لكلٍّ من المريض والممرِّض من جهة المداواة والشفاء. وقد جاهر بهذا الرأي جماعة من عِلْيَة الأساة منهم فلبيان (١ ودوره (Duret) ولانسرو (٢ وفُلَّين (Follin) ودُبْلاي (٣ وسِكُون (٤ وليوناردي (٥ وبَيرو (٦

علينا ان نبسط الآن هذا كما اوضحهُ النطاسيّ اوزين وهو من الجهابذة في هذا الموضوع واليك ما قالهُ بحرفهِ الواحد: « من المُثبَت على مبدإ مبين ان تولُّد الدَّوالي على ما بيَّنَّاهُ لا ينبه في الافكار اعتراضًا ذا بال بل يتَّفق كل الاتفاق بدون استثناء تقريبًا مع كيفية نشوء البواسير بالوجه الآتي:

«لا يعرب على كل ذي عقل سليم بانهُ اذا حدث سبب فعَّال مهما كان وأثَّر في البنية حيدانًا في الاغتذاء او قُل اضطرابًا بسبب تباطؤ الاغذاء. فلا يُعسَّم ان يرى بعد ذلك

---

١) (Vulpian : *Appareils Vaso - Moteurs*, T. II, p.524)

٢) (Lancéreux : *Thèse de Goudet, Montpellier*)

٣) (Duplay : *Traité de Pathologie ext.*, T. III, p. 451)

٤) (Segond : *Dict. de Médecine*, XXXVIII p. 253)

٥) (Léonardi : *Thèse de Paris*)

٦) (Peyrot : *Manuel de Pathol. exter.*, T. III)

في هذا النسيج او ذلك النسيج من الجسد مظاهر شتّى تخلّ بنظامهِ والتئام أجزائهِ وتختلف هذه المظاهر عددًا وشدّة . والحال ان البواسير على ما يظهر لنا هي احد هذه المظاهر وذلك لان جهاز الاعصاب المتحركة الوعائية Appareils) vaso-moteurs (أُصيب بشيء فأخلّ بسلامتهِ ومن ثمَّ بوظائفهِ فنشأ عن ذلك تمدُّد في الاوعية رويدًا رويدًا (وهو الدرجة الاولى من التهاب بطانة العروق) فتارةً يزداد ويتعرقل بما ينزل بهِ من الاعراض والاحداث المتقطّعة او المتواصلة متشبثة بمقرّ الخلل وطورًا يتقهقر ويتناقص وحينًا يتخفّف ليتخفّى بعد ان باغتَ صاحبهُ وهو مع ذلك باقيًا لاطئًا

« وبعد ان يتمكن هذا التمدُّد في الاوعية ينشأ في جدرانها تغيُّرات اعظم ممَّا سبقها وتُصبح تغيُّرات خاصةً بالتهاب بطانة العروق. وربَّما قويت في أطوارها فتتعدَّى حدودها من الالتهاب او لا تتعدّى بمقتضى الاحوال ثم يُباغتها بعد ذلك كل نوع من الخلل آتيًا من الجوار لكنهُ يبقى دائمًا في حكم المنزلة الثانية من الاهمية

« ثم انَّ البواسير مهما بلغت من نُشوئها ربَّما تكيَّفت بعض الاحيان بتكيُّفات مرجعُها الى احتقان الدم او الى الالتهابات ومصدرها فعل عامّ سواء كان من اصل عصبيّ او من اصل آخر او من فعل محلّي آليًا كان او ورَميًا

« فلهذا المذهب في تولُّد البواسير منافع وفوائد جمَّة فانهُ لا يقوم فقط بشرح جميع الإصابات من هذا القبيل بل من شأنهِ ايضًا ان لا يكون هدفًا لسهام الاعتراضات كما تُستهدَف سائر الاراء. ويحمي ذمارَهُ لا بل ويُعلي منارهُ ايضًا ما في غير الآراء ممَّا لا مشاحَّة فيها وهو ايضًا منها بمنزلة الفريدة في عقد الجمان او ان شئتَ قل انهُ بمنزلة العَقد القائم على اساس متين من البنيان وتلك الآراء بمنزلة المواد التي يبنى منها ذلك العَقد القوي الاركان وهي من الشتات في كل مكان

« فلعمري اذا نظرنا الى هذا الرأي بعين وقّادة نقّادة من مناظرهِ الاربعة اي من جهة تولُّد المرض وطبيعة خلَلهِ وعلاماتهِ وعلاجهِ يظهر لنا انهُ لا يُبقي وراءهُ ألّا شيئًا زهيدًا من اثر الابهام بما يتعلق باسرٍ تاريخهِ

« فمن جهة تولُّدها واسبابها ان الدوالي الباسورية هي نتيجة حالة ارتخاء فعل النظام

العصبيّ الذي تختلف عِلَلُهُ فيعمل راساً على الدوالي الباسوريّة واسبابهُ متعاونة متضافرة تقل او تكثر عدداً راجعة كلها الى علم التشريح وعلم مظاهر الحياة (الفسيولوجية) وعلم الامراض (الباتولوجية)

« فالدوالي ليست اذاً من نتائج البنية الفلانية فقط. امَّا سبب كثرة وجودها بين الناس فلتنبُّر تزل في عصبهم فقوي احسن يقوى فتمكّن فيه لكنهُ لمَّا تزل في عصب غيرهم طرد شرٍّ طردٍ فولَّى الادبار

« ثم اذا فحصنا الظواهر التي تُعرف بها الدوالي الباسورية وتتبعناها أحادى يظهر لنا من الموافق للعقل الناقد ان لا نرى هذه العلامات الَّا بمنزلة عنوانٍ يختلف باختلاف ما يقع من الاضطراب في الاغتذاء خاضع للحالة المرضية الطارئة على المراكز المقلصة الوعائية (Centres vaso-constricteurs) والمراكز الممددة الوعائية (Centres vaso-dilatateurs)

« فتخص هذه المسئلة بهذا الوجه لا ينافي ركود الدم الآلي (Stase mécanique) (وهو الراي الاول) وحقيقتهُ لا مراء فيها . ولا ينافي حركة احتقان الدم (وهو الراي الثاني) التي في بعض الاحيان تكون مع العلة الاولى ولعلها لا تنتج الَّا عن التشنُّجات العضلية . وعلى كلٍّ فهما كان السبب الفعَّال لهذا التعرُّق المرضي فمن المحتمل انهُ يتعلق بسبب اعم ممَّا يتصوَّرهُ الانسان وهو ليس الَّا نتيجة الاضطراب الابتدائي الذي هجم على النظام العصبي

« وهذا الاضطراب الرفيع المنزلة في اهميَّته عند تطبيق اصول المعالجة عليه بيان انهُ الاصل الحقيقيُّ لداء البواسير أو ان شئت فقل انهُ السبب البدني الحقيقيُّ الذي يُحدث خللاً في نوعيَّة نسيج العروق وليس ابداً كما يزعم البعض بتغيُّره خطةً مجبولة من سابقٍ على ان يظهر فيها الاستعداد للدَّوالي فأخطأوا في تسميته ». اه كلامهُ

وفي عددٍ قادمٍ نبسط الكلام في معالجة البواسير (ستأتي البقية)

تسريح الابصار

في ما يحتوي لبنان من الآثار

للاب هنري لامنس اليسوعي (تابع لما سبق)

٥ آثار الرومانيين في لبنان

اثنى صاحب سفر المكابيين الاوَّل (٨: ١—١٦) الثناء الحسن على الرومانيين واعمالهم فقال فيهم: «انَّهم ذوو اقتدار عظيم ويُبرُّون كلَّ من ضوى اليهم وكلُّ من جاءهم آزروهُ بجودتهم ولهم شوكة شديدة.. وكل من سمع باسمهم خافهم. ومع ذلك كلهِ لم يلبس احدٌ منهم التاج ولا تردَّى الأُرجوان مباهاةً بهِ. وهم يفوِّضون سلطانهم وسياسة ارضهم بجُملتها كلَّ سنة الى رجل واحد وجميعهم يطيعونهُ وليس فيهم حسد ولا منافسة»

لعمري انَّ هذا مديحٌ نعماً فاهَ بهِ الله على لسان الكاتب الشريف وصدق في وصف أُمَّة تنطق آثارها الباقية الى يومنا عن جاهها وعلوّ كعبها. ولم يُحرَم لبنان من شواهد عزّ الرومان وشوكتهم. ولو لم يُخلفوا لنا سوى آثار دير القلعة الذي مرَّ وصفهُ في الفصل السابق لكفى بهِ شاهدًا على صدق مقالنا اذ بيَّنَّا انَّهُ معبد رومانيّ شيَّدتهُ مستعمرة بيروت الرومانيَّة. بيد انَّ للرومان مآثر جمَّة في جميع انحاء لبنان غير هذا المعبد فرأينا في ذكرها افادةً للجمهور ليطَّلعوا على اعمال هذا الشعب الذي اضحى اسمهُ مرادفًا للفخر والعظمة

ولا بُدَّ هنا من مقدَّمة موجزة يقف بها القارئ على احوال سوريَّة في وقت تغلُّب الرومان عليها في سنة ٦٥ قبل المسيح. لمَّا قُتل انطيوخوس الثاني عشر ملك سوريَّة (سنة ٨٥ ق م) صارت البلاد في حالٍ من الضعف اطمع فيها دغرانَ ملك الارمن فزحف اليها بخيلهِ ورَجلهِ واستولى عليها غنيمةً باردة لم يقوَ احد على ان ينتشلها من مخالبهِ. فبقيت تحت حوزتهِ الى ان دارت عليهِ الدوائر في سنة ٦٩ لمَّا غلبهُ القائد الروماني لوكلُّوس في واقعة دِغرانوكِرت. فانتهز انطيوخوس الثالث عشر هذه الفرصة

ليستوي على عرش آبائه الا انَّ ملكهُ لم يدم سوى اربع سنوات. وكانت سوريَّة في تلك الاثناء قد تضعضعت قواها وتقهقرت امورها وانتقض حبلها. وكان يحدق بها شعوب قاموا لها بالمرصاد يتطاولون اليها طامعين في ملكها. تحدُّها جنوبا مملكة اليهود من بني حشمناي وهم لا يزالون في قلق متداوم. وكان النبطيُّون يملكون على حدودها الشرقيَّة ويحكمون على دمشق وضواحيها وعلى جبل الشيخ. امَّا قبائل البادية فكانت على ثغورها جماء تزاحمها وتشن عليها الغارات. ولمَّا صار الامر الى دغران صرف همتهُ الى عقد العهود مع زعماء هذه القبائل فجعلهم كرؤَاد تجارتهِ مع البلاد المتاخمة واشتهر من جملة هؤُلاء سراة القبائل شيخان ملك احدهما على حمص اسمهُ سيمبرام او سيسيكرامس (١ . اما الثاني فيُدعى عزيزاً وكانت دولتهُ على بادية شمالي سوريَّة

ومن الدول العربيَّة التي اشتهرت في ذلك الوقت دولة الايتوريين ملكت على لبنان وعلى ساحل فينيقيَّة. وكان هذا الشعب محنكاً في آداب الحرب يحسن الرمي بالنبال. وكان اصلهُ من الجبال الصخريَّة التي موقعها في شرقيّ دمشق المعروفة اليوم بجبل حوران او جبل الدروز واللجأ. فلم يزل امرهُ يعلو ويقوى حتى تعدَّى حدود وطنهِ فاستولى على جبال الشيخ وبقاع العزيز فضرب ثمت خيامهُ واقام لهُ دولةً صغرى جعل عين جرّ (Chalcis) كعاصمتها. وما عتَّم ان تسوَّر قمم لبنان وحصنها بالقلاع ثم هبط الى سواحل الشام فاتخذ لهُ دولةً ايتوريَّة ثانية اضحت طرابلس مركزها. وكان هؤُلاء الغزاة يهبطون كسيل جحاف من مشارف لبنان فيغزون وينهبون لا يقوم في وجههم حاجز. واكثر من كانوا يأذون بمكروههم اهل جبيل وبيروت لا يقوون على الذَّود عن حمى ديارهم ومزروعاتهم وسفنهم. ولا غرو انَّ الاسماء العربيَّة المحضة الواردة في كتابات يونانيَّة وُجدت في نواحي جبيل وبترون ترتقي الى عهد دولة الايتوريين هؤُلاء. (٢

فتلك كانت حالة سوريَّة لمَّا ارسل بمبيوس قوَّادهُ ليحتلُّوها وما لبث ان سار اليها هو بنفسهِ سنة ٦٤ فنظمها في سلك املاك الدولة الرومانيَّة وجعلها اقليماً قائماً بذاتهِ ثم

---

١) راجع المشرق ١ : ٧٧١ وكتابات وادنتنون العدد ٢٥٦٧

٢) راجع Mission de Phénicie 199, 200

قلّم اظفار الفتن وفتح معاقل العُصاة وردَّ قبائل البادية الى مساكنها الأولى واعاد السلم والنظام الى مجاريهما. ولما سعى اليه اهل طرابلس متظلّمين من ملكهم الايتوري ديونيس امر به فقُتِل بعد ان تثبَّت ظلمهُ

ثم واصل بمبيوس سيرهُ في سواحل سوريَّة ظافرًا وتوغَّل لبنان واخذ عنوة قلعة جيجرتا (Γίγαρτα) الآتي ذكرها فأخربها كما انهُ هدم قلعة وجه الحجر (θεουπρόσωπον) وقوّض ابنية بترون لحلول اصحاب الجنايات في ضواحيها. ولمّا قدم جُبيل مثَّل بملكها كينيراس كما فعل بصاحب طرابلس ونفَّس كُرْبة اهلها وجعل مدينتهم مستقلَّة تحت حمى الرومان

ثمَّ تخرَّق بمبيوس وشْكَ الشتاء فيمَّم سهول البقاع ورياض دمشق ليُحِلَّ جندهُ في بسائطها الرائعة فينالوا هناك نصيبًا من الراحة بعد الاتعاب التي تجشَّموها. فقطع جبل لبنان (١ وافتتح في طريقهِ قلعتيِّ برومة (Borroma) وسنَّان (Sinnan) الوارد ذكرها. فما دخلت السنة ٦٣ ق. م. حتى اتمَّ الرومان فتح البلاد السوريَّة واستقرَّ لهم الامر في انحاء لبنان

ومن شروط المعاهدة التي عقدها الرومانيُّون مع اهل الشام ان يَلزم سكَّان البلاد شرائعهم وسُنَنهم ويجروا على نظامهم القديم ولا يُغصَبون في لسانهم ودينهم وعاداتهم. امَّا المدن الساحليَّة فجعل الرومان امرها شورى يدبّر شؤونها نُخبةٌ من اشراف البلد وابطلوا بذلك ما كان لملوكها من السلطة المطلقة. ثم ضربوا الجزية على الاهلين يؤدّيها لهم الذكور منذ سنتهم الرابعة عشرة والاناث منذ الثانية عشرة الى السنة ٦٥ من عمرهم جميعًا (٢ وفرضوا عليهم خراجًا جبوهُ من الاملاك يبلغ في المئة واحدًا. ورسموا ايضًا ضرائب ومكوسًا على الواردات والصادرات من السلع الآن هذه الرسوم مع ثقلها كانت اخفَّ على عاتق السوريين من المغارم والسُّخَر التي حمَّلهم بها ملوكهم سابقًا وكانوا يتقاضونها دون نظام معلوم وفي ايّ آنٍ شاؤوا

فما مرَّ على سوريَّة الّا الزمن اليسير حتى التأم صدعُها وانجبر كسرها وانتظم شمل

---

١) لعلَّ بمبيوس تسلَّق بجنوده لبنان من جهة جُبَيل مارًّا بالماقورة فاليمُّونة الى بعلبك
٢) راجع Ulpiani Digesta, *Lib.* L, *leg.* 2, n. 3

السُّكَّان فرتعوا في بحبوحة الأمن. وكان الرومان قد احيوا معالم العدل واماتوا سُنن الجور يأخذون للضعيف من المقتدر وينشّطون الجميع على الاعمال الشريفة والمشروعات المفيدة التي تعود عليهم بالمنافع العظيمة لاسيَّما التجارة والبحارة والصنائع والفنون

امَّا لبنان فأصاب من هذه الاصلاحات نصيبهُ الحسن. وكان هذا الجبل الشهير لمَّا فتحهُ الرومان قليل السُّكَّان فزاد اهلهُ بعد مدَّة وخصبت تُربتهُ (١ وعاش اللبنانيُّون في الرَّغد والهناء في حوزة رومة يشكرون لسياسة ولاتهم ويشنون في ظلّهم الوارف وهم مع ذلك يجرون على سُنتهم ويتصرَّفون في تدبير امورهم كيف شاؤوا

ومذ ذاك الحين اخذت العوائد الرومانيَّة تتغلَّب على البلاد الشاميَّة وانتشرت اللغة اليونانيَّة في المراكز الكبرى حتى نُسي كثيرون اللغة الفينيقيَّة واللغة الآراميَّة لاسيا بين الاشراف واصحاب الثروة. امَّا اللغة اللاتينيَّة فبقيت محصورة في الدوائر الحكميَّة لم يشع منها بين الجمهور غير مفردات تتعلَّق بالموزونات والمقاييس والنقود والادارات السياسيَّة والحرب كهذه: البريد والسجلّ والرطل والدينار والاوقيَّة والبرج والاطربون والبوق والقومس والقسطاط والشُّرطي وما شاكلها ولعلَّ كثيرًا منها وصل الى العرب مجتازًا على ألسنة المتكلمين باليونانيَّة. وفي بعضها مسحة من اللغة الآراميَّة (٢ . وممَّا بلغنا من آثار اللغة اللاتينيَّة كتابات قلائل سُطِرت على بعض القبور. بيد انَّ المستعمرات الرومانيَّة في سوريَّة داومت على التكلّم باللاتينيَّة ومن جملتها مستعمرة بيروت. امَّا العامَّة فلم يزالوا محافظين على لغتهم الفينيقيَّة والسريانيَّة يؤخذ ذلك من الاسماء الآراميَّة الواردة في الكتابات القديمة

ولمَّا كانت السنة ٤٧ ق م قدم الشام يوليوس قيصر فنزل في ساحل عكَّة مع جنوده ثمَّ سار الى فينيقية ولبنان فتقاطر اليه الشعب واستقبلهُ استقبالًا شائقًا عمل في قلبه وحملهُ على افاضة نعمه على الاهلين فخفَّف من عبء الضرائب ومنح المُدن التي طاف

---

١) وكذلك جرى في حوران. راجع المجلَّة Z D P V, XXI, 21

٢) راجع ما قلنا عن اصل هذه الالفاظ في كتابنا الفروق. اطلب ايضًا المقالة التي حرَّرناها في المشرق (١ : ٤٤٠–٤٤٨). ونزيد هنا عن اصل كلمة « الشرطيّ » انَّنا وجدناها في كتابة يونانيَّة مكتوبة بصورة (Χώρτη) منقولة اليها من اللاتينيَّة (cohors). وهي قريبة من لفظة « الشرطي »

فيها مواهب وافضالاً عديدة والَّف القلوب النافرة واعطى مدينة بترون الاستقلال

وسار نسيبُهُ وخَلفُهُ اوغسطس قيصر على منهاجهِ واختصّ لبنان بنعم سابغة ووهب جُبيل أفضالاً عميمة . فقام اهل بترون وجُبيل بفروض الشكر لولي نعمتهما وأرَّختا نقودهما بتأريخ اكسيوم(١ ذكرًا لانتصار اوغسطس على خصمهِ انطوان (٣١ ق.م)

(ستأتي البقية)

الرسالة الشهابية في الصناعة الموسيقية

للدكتور ميخائيل مشاقة

اعتنى بضبطها وتصحيحها وتعليق حواشيها الاب لويس رونڤال اليسوعي

(تابع لما قبلهُ)

الباب الاول

في المبادئ اللازمة معرفتها للموسيقي وفيهِ سبعة فصول

الفصل الاول

في تفسير الانغام المسمَّاة ابراجًا

الصوت بحسب مراتبهِ وطبيعتهِ يُقسم الى مراتب غير متناهية بالقوَّة وإن تناهت بالفعل وكلُّ مرتبةٍ هي جوابٌ لما دونها وقرار لما فوقها(٢ ثم ان كل مرتبة تُقسم الى سبع درجات الواحدة فيها تعلو الاخرى وهذه الدرجات يسمونها ابراجًا . وقد وضعوا لها

---

١) ورد هذا التاريخ في كتابة جُبَيليَّة تُعرف بكتابة البلاط(Mission de Phénicie, 224). وقد وجد الدكتور جول روفيه نقودًا أُخرى تثبت هذا الامر لجبيل ولبترون معًا .

٢) الجواب ما يسميهِ الافرنج l'octave supérieure d'une note والقرار l'octave inférieure والمرتبة اي الديوان ما يدعونهُ gamme او une octave

اعلاماً تميّزها. فاولها يكاه. وثانيها عُشَيران. وثالثها عِراق. ورابعها رَسْت (١. وخامسها دوكاه. وسادسها سَيكاه. وسابعها جاركاه (٢. وهذه يقال لها المرتبة الاولى والديوان الاول. ثم يلوها المرتبة الثانية: واولها برج النوى. وثانيها الحُسَيني. وثالثها الأوج. ورابعها الماهور. وخامسها المُحَيَّر. وسادسها البُزرَك (٣. وسابعها الماهوران وهو جواب الجاركاه ونهاية المرتبة الثانية. ثم فوقها المرتبة الثالثة: واولها جواب النوى المعروف بالرَّمَل توتى. وثانيها جواب الحسيني. وثالثها جواب الأوج. ورابعها جواب الماهور. وخامسها جواب المُحَيَّر. وسادسها جواب البُزرَك. وسابعها جواب الماهوران وهو نهاية المرتبة الثالثة (٤. وهكذا تتعدّد المراتب صعوداً وتتسمى ابراجها بتكرار اضافة الجواب الى مثلهِ. فيقال جواب الجواب. وجواب جواب الجواب. وهلمّ جرًّا الى ما لا نهاية لهُ. وتتعدّد نزولاً ايضاً بحيث يمكن ان يُقال تحت اليكاه قرار الجهاركاه. وتحتهُ قرار السيكاه. وتحتهُ قرارهُ الدوكاه. وتحتهُ قرار الرست. وتحتهُ قرار العراق. وتحتهُ قرار العشيران. وتحتهُ قرار اليكاه. وهكذا الى ما لا نهاية لهُ.

وامّا قولنا ان اول الابراج اليكاه فهذا ليس بضروري بل هو استحسان اختياري قد وضعهُ اكثر علماء العرب. ولعلّهم اختاروا الابتداء بهِ طلباً للمناسبة في ترتيب الابراج بان يكون الاول برجاً كبيراً يليهِ صغيران ثمّ كبيرٌ وكذلك ثمّ وثمّ الى النهاية كما يظهر لك في محلّهِ. فلو كان الابتداء من غيرهِ لم ينتظم هذا الترتيب. ولذلك اقتفيتُ آثارهم في وضعهِ. وقد جعل بعضهم الابتداء من برج الرست. واما اليونان فجعلوا اول الابراج الدوكاه ويمكنُ الابتداء باي برجٍ كان منها بحيث تصير المرتبة لسبعة ابراج الواحد فوق الآخر ويكون الثامن جواباً للاول. وهذا الجواب هو ضعف القرار في

١) ويروى راست ومعناه بالفارسية مستقيم وقد سموه كذلك لانّ بهِ كانت العجم تبتدئ الديوان الطبيعي المعروف بالمقامة المستقيمة

٢) وكل من يكاه ودوكاه وسيكاه وجهاركاه كلمات فارسية مركبة من اسماء الاعداد ١، ٢، ٣، ٤ ومن كلمة كاه بمعنى الموضع. وقد زاد بعضهم عليها: پنجكاه وششكاه وهفتكاه. وهذا دأب من يبتدئون الديوان من الرست. فالرست حينئذٍ يساوي اليكاه والپنجكاه يساوي النوى والششكاهُ الحسيني والهفتكاه الاوجَ (راجع Villoteau : *Description de l'Egypte*, T. XIV, p. 15)

٣) ويلفظ ايضاً البُزُرْك والبُزُرُك

٤) ولم نعثر لهذه الجوابات على أسام خاصة بيد ان ما تأخّر منها نادر الاستعمال لحدتهِ وعسر الوصول اليهِ على العود كما ستراه في باب العود

الشدة ونصفهُ في الضخامة لان صوت الجواب اعلى من القرار الّا انهُ ارقّ منهُ. ثم ان الصوت الانساني بحسب الطبيعة لا يكون الصعود بهِ من القرار الى الجواب والهبوط من الجواب الى القرار على اكثر من سبعة ابراج. اي لو قسمت المرتبة الى عشرة ابراج مثلًا عوضًا عن قسمتها الى سبعة لم يكن يتأتّى للصوت الانساني المرور عليها الّا بعنفٍ شديد ويكون الصوت المسموع منها مما تنفر الطبيعة الانسانية عن سماعهِ. ومن ذلك يُعلم ان قسمة المرتبة الى سبعة ابراج هي امرٌ طبيعيٌ لا بدَّ منهُ بالضرورة

الفصل الثاني
في تقسيم الارباع

ان السبعة(١ الابراج المتقدم بيانها في الفصل الاول هي كسُلَّم الدرجة فوق الاخرى فلم يكن البُعد بينها متساويًا بل ان بعضها يبعد عن بعض اكثر وبعضها اقلّ. وهذه القضية موضوع خلاف بين الموسيقيين من العرب واليونان فان العرب يقسمون البُعد الكائن بين الابراج الى رتبتين كبيرة وصغيرة فالكبيرة ما كان البعد فيها بين البرجين المتجاورَين اربعة ارباع. والصغيرة ما كان البعد فيها ثلاثة ارباع. فالاولى منها هي من اليكاه الى العشيران ومن الرست الى الدوكاه ومن الجهاركاه الى النوى. والثانية من العشيران الى العراق ومن العراق الى الرست ومن الدوكاه الى السيكاه ومن السيكاه الى الجهاركاه. فتكون الرتبة الاولى ثلاثة ابراج تحتوي على اثني عشر ربعًا كل برج

١) اعلم ان الديوان الموسيقي لم يكن يحتوي باديَ البدء الّا على اربعة ابراج كما يُستنتج ذلك من الالحان الشائعة بين الاقدمين وهو الديوان المشهور المسمَّى عند اليونان Tétrachorde اي الديوان ذا الاربعة الاوتار وقد دعاه الفارابي البُعد الذي بالاربعة. وهو بمنزلة أساس ومبدإ لكل ما اخترعه الاقدمون والمتأخرون من تقسيم الرتبة الموسيقية وتحديد الابعاد بين نغمةٍ ونغمة فلمّا اخذت دائرة الالحان في التقدم والاتساع لم يلبث السلف ان شعروا بما في الديوان الاصغر الآنف ذكره من الضيقة والنقصان فارادوا من ثم توسيع ناطقتهِ وزادوا عليهِ ديوانًا آخر صغيرًا يشاكلهُ وهكذا كان الوصول الى ما يقرب من جواب القرار الذي كان يوخذ ببعدٍ واحدٍ واخيرًا الى الجواب. على انهم لم يكتفوا بذلك الّا اردفوا الجواب بديوانين آخرين صغيرين وبرجٍ واحد فحصل من ذلك ما سموه الجمع التام (τὸ σύστημα τέλειον, δὶς διὰ πασῶν) المحتوي على ١٥ برجًا والممتدّ من اليكاه مثلًا الى الرَّمل توتي الذي هو غاية الرتبة الثانية وهذا الجمع يكون اما منفصلٌ واماً متصلٌ فالمنفصل ما تخلَّل بين الديوانين الاولين والديوانين الآخرين البرج المسمى

منها اربعة ارباع . والرتبة الثانية اربعة ابراج تحتوي على اثني عشر ربعاً كل برج منها ثلاثة ارباع . فتكون ما تحتوي الابراج السبعة اربعة وعشرين ربعاً

واما المتأخرون من اليونان(١ فيجعلون اول الديوان برج الدوكاه المسمّى عندهم "يا" ونهايته الماهور المسمّى عندهم "ني" . ويقسمون الابراج الى ثلاثة مراتب والبعد الكائن بين الابراج يقسمونهُ الى دقائق . فالرتبة الاولى عندهم هي عين الرتبة الاولى عند العرب لكنهم يقسمون البعد بين البرج منها والآخر الى اثنتي عشرة دقيقة . والرتبة الثانية هي من الدوكاه الى السيكاه ومن الحسيني الى الاوج . والبعد بين كل برج منها تسع دقائق . والرتبة الثالثة هي من السيكاه الى الجهاركاه ومن الاوج الى الماهور . والبعد بين كل برج متناسب دقائق . فتكون جملة ما تحتويه الابراج السبعة ثمان وستين دقيقة . منها الرتبة الاولى ثلاثة ابراج وتحتوي على ست وثلاثين دقيقة . والثانية برجان تحتوي على ثماني عشرة دقيقة . والثالثة برجان ايضاً تحتوي على اربع عشرة دقيقة

ذيل على الفصل الثاني

ولسائل ان يسألنا عن تركيب الديوان الصغير الذي منه تتكون المرتبة فنجيب على وجه العموم انهُ كان يحتوي على بُعدين ونصف اي على اربع نغمات كما قلنا من اليكاه مثلاً الى الرست او من الدوكاه الى النوى غير ان هذا موضوع اختلاف بين الاقدمين والمتأخرين لعدم اتفاقهم على سعة البُعد الوسيقي . فكان الاقدمون مع فيثاغوراس لا يعتبرون الا جنساً واحداً من البعد الكامل يعبرون عنهُ بنسبة ٩/٨ فكان حينئذٍ نصف البعد عندهم معبّراً عنهُ بنسبة ٢٥٦/٢٤٣ فهذه صورة تقسيمهم الديوان :

لذلك بُعد الانفصال والّا فكان الجمع متصلاً نهاك صورة الجموع المختلفة المتولدة على اختلاف مقرّ بعد الانفصال

الجمع التامّ

	الديوان الاول التام 1ste Octave.			الديوان الثاني 2e Octave.		
جمعان منفصلان	بعد بالاربعة	بعد بالاربعة	بعد الانفصال	بعد بالاربعة	بعد بالاربعة	بعد الانفصال
	بعد الانفصال	بعد بالاربعة	بعد بالاربعة	بعد الانفصال	بعد بالاربعة	بعد بالاربعة
جمع متّصل	بعد بالاربعة	بعد الانفصال	بعد بالاربعة	بعد بالاربعة	بعد الانفصال	بعد بالاربعة

١) نصاً قال لانّ ما اطلعنا عليهِ من كتاب الموسيقي للفارابي لم يفدنا شيئاً عن هذا التقسيم الى ٦٨ دقيقة . وليس احد يجهل ان للفارابي إلماماً مدققاً بعلماء اليونان في شرحه اصول فنّ الموسيقي

Fa		Mi		Ré		Ut
رست	٢٤٣/٢٥٦	كوشت	٨/٩	عشيران	٨/٩	يكاه
جهاركاه]		بوسليك		دوكاه		[او رست

وامّا المتاخرون حتّى معاصرونا فاتّبعوا اثار بطليموس الفلكي فقسموا البعد الكامل الى جنسين الاكبر والاصغر (Ton Majeur et Ton Mineur) فالاكبر ما نسبةُ برجيهِ ٨/٩ والاصغر ما نسبتها ٩/١٠ فيحصل من ذلك تغير في نسبة نصف البعد فيساوي عندهم ١٥/١٦ فصورة ديوانهم هذه :

Fa		Mi		Ré		Ut
رست	١٥/١٦	– كوشت	٩/١٠	عشيران	٨/٩	يكاه
		[او + عراق]				

اما بعد الاتصال الذي مقره بين الرست والدوكاه فهو على حدٍ سواء في الديوانين لان نسبته في كليهما ٨/٩ فكثيراً ما ترى الفارابي يسمّي هذا البعد بالبعد الطنيني او بالمدّة او ببعد المودّة وقد اصبح قياساً ثابتاً ايام هذا العالم الشهير

وفضلًا عن البعد الطنيني ونصف البعد يوجد بُعدٌ آخر وهو المدعو تارةً بقيّةً او فضلة(λεῖμμα) اذا كان باقلّ من نصف الطنيني وطورًا انفصالاً (ἀποτομή) اذا كان يتجاوزه وقد اتخذ اليونان ايضاً الارخاء (διαίρεσις) وهو ثلث المدّة او ربعها فسمّوا الاول « الملوّن » (δίεσις χρωματική) والثاني الناظم (διαίρεσις ἐναρμόνιος) . وامّا الفارابي فيطلق تسمية الارخاء غالباً على الربع وحده ونسبته ٢٥/٢٦ . هذا ولا يخفى انهُ اذا ادخلنا في الديوان المار شرحهُ احد هذين الجزءين الصغيرين لتغيرت صورته واختلفت الاصوات عن النغمات الاصلية على اختلاف الابعاد المتخللة بين برج وبرج . وهذا هو مصدر الاجناس الثلاثة في تقسيم الديوان وسنعود اليهِ في باب تعريف الالحان فحسبنا الآن القول انّ تقسيم الديوان المذكور آنفاً هو بمقتضى الجنس الاول المسمى بالجنس القويّ

قد مرّ بنا ذكر الابراج ونسبة بعضها الى بعض فعلينا الآن ان نبيّن كيف يتوسل الى استخراج تلك النسب . نقول ان ذلك يتمّ بطريقتين فالاولى مقابلة طول الاوتار والثانية مقابلة عدد الاهتزازات . اما الطريقة الاولى فغاية من السهولة وهي ان تشدّ وترًا على عودٍ او طنبورٍ او على صندوقٍ فارغ ثم تنقرهُ . فلنفرض ان الصوت الحاصل هو برج اليكاه فاذا اردت معرفة النسبة بين اليكاه والعشيران عليك ان تضغط الوتر عند احد طرفيهِ الى ان تسمع صوت العشيران ثم قس طول القسم الذي اناتك صوت العشيران ترَ انهُ اذا كان طول الوتر ١ او مترًا واحدًا لليكاه يكون طولهُ للعشيران ٠,٨٨٨٠٠٠ اي ٨/٩ المتر . واما الطريقة الثانية فهي اعسر اذ تقتضي استعمال آلةٍ خصوصيةٍ لعداد الاهتزازات الحسية وعليهِ فاذا عددت الاهتزازات المتولدة في الوتر عند تحرك مطلقه الذي هو مثلًا اليكاه ثم عددتِ كذلك الاهتزازات اللازمة لتوليد صوت العشيران وجدت ان نسبتها كنسبة ٩ الى ٨ اي ٨/٩ ومن ذلك يستنتج ان نسبة الاطوال عكس نسبة عدد الاهتزازات ولهذا ترى بعضهم يرسمون رسم الديوان الآنف ذكرهُ على نسبٍ منقلبة لانهم يعتبرون الاهتزازات لا طول الاوتار

الفصل الثالث

في الفرق الكائن بين الابراج والارباع العربية والابراج والدقائق اليونانية

الشكل الثامن (١)



قد تقدم ان الديوان يُقسم عند العرب الى اربعة وعشرين ربعاً وعند اليونان الى ثماني وستين دقيقة ولهذا لم تحصل موافقة حقيقيَّة بينهما الَّا في اربعة مواضع. اولها برج اليكاه فان الربع الاخير منهُ مساوٍ للدقيقة الاخيرة من برج ذي (٢ التي هي مطلق الوتر. وثانيها الربع السادس المسمّى قرار العجم فانهُ مساوٍ للدقيقة السابعة عشرة التي هي الدقيقة الخامسة من برج زو. وثالثها الربع الثاني عشر المسمى زركلاه فانهُ مساوٍ للدقيقة الرابعة والثلاثين التي هي السادسة من برج يا. ورابعها الربع الثامن عشر المسمى بوسليك فانهُ مساوٍ للدقيقة الحادية والخمسين التى هي الثانية من برج غاو. فيما عدا هذه الاربعة لا يحصل مطابقة حقيقية الَّا في اجوبة الارباع والدقائق المذكورة وقراراتها

---

١) احببنا ان نورد هذا الشكل الذي هو الثامن في النسختين بازاء المتن لما في لاطّلاع على الديوان العربي واليوناني معاً من الوضوح والتسهيل وهكذا يكون دأبنا فيما بعد مع سائر الاشكال وان كان صاحب الرسالة جمعها في محلٍ واحدٍ من كتابهِ

٢) فما مسمَّاه برج ذي هو فعليّاً قرار برج ذي لان برج ذي ساوٍ للنوى الذي هو جواب اليكاه وكذلك ترى العشيران يقرب «من قرار كه» لا من كه والعراق من قرار زو والرست من قرار في. وسبب ذلك على ما افادنا المؤلف في الفصل السابق ان المتأخرين من اليونان كانوا يجعلون اوّل ديوانهم الدوكاه اي يا ثم قو ثم غا ثم ذي

وانطباق الابراج العربية على اليونانية هو انطباق تقريبي لا يقيني فانك لو طبّقت برج الكاه على قراد برج ذي الذي هو الكاه عند اليونانيين وطبّقت برج النوى على برج ذي الذي هو برج النوى عند اليونانيين مرسومَين في جدولَين متحاذيين احدهما مقسوم الى اربعة وعشرين ربعاً والثاني الى ثماني وستين دقيقة ساحباً على عرض كل منهما خطوطاً تلتقي في محل مُماسَّة الجدولين يظهر لك ان الابراج المتوسطة بين الكاه والنوى لا تنطبق على الابراج المتوسطة بين قراد ذي وبين برج ذي انطباقاً تامّاً بل ان بعضها يعلو او يسفل عن بعض تارةً اكثر من دقيقة وتارة اقل كما ترى ذلك مرسوماً في الجدول الموضوع في هذه الرسالة في الشكل الثامن. وسبب هذا الاختلاف اولاً كون ابراج العرب رُتبتَين وابراج اليونان ثلاث مراتب. ثانياً كون ارباع العرب اربعة وعشرين ودقائق اليونان ثمان وستين وهذان العددان لا يتوافقان في اكثر من الاربعة المواضع المذكورة ولهذا السبب كل ستة ارباع عربية تساوي سبع عشرة دقيقة يونانية واول كلٍ من الارباع الستة يستوي مع اول كل من السبع عشرة دقيقة كما هو معلَّم عليها في الجدول المذكور

سفر حديث الى رومانية

للاب ايدي لوريول اليسوعي (تابع لما قبلُ)

في اخلاق اهل رومانية ولغتهم

خصَّ الله اهل رومانية بصورة حسنة وهيئة جميلة سواء كانوا من ساكني جبال الكرپاث او من قاطني السهول فانَّ وجوههم وسيمة فيها شيء من السُّمرة وشعرهم اشقر وعيونهم حادَّة البصر يفترّ ثغرهم عن اسنان بيضاء كالثلج. وترى شعرَهم يسترسل على اكتافهم لا يبيحون بقصّهِ وربَّما فرَّ بعضهم من الجنديَّة أَنفةً من ذلك. وهم مع هذا أَمجدولو الاعضاء أَثبات على التَّعَب ذوو حذق في العمل يلوح في حركاتهم سيماء الجلال والهيبة لا يخلو من ذلك حتى رعاتهم وصعاليكهم

ولاهل رومانية ازياء قديمة من اللبس تزيدهم حسنًا وتكسوهم جمالًا فيلبس رجالهم سراويل واسعة مخطَّطة وأردية متلوّنة وقلانس من اللبد وفي وسطهم زنانير ضخمة. والرعاة منهم كرعاة الأكراد في ازيائهم. امَّا النساء فيلبسن قميصًا ضافية مطرَّزة مزركشة فوقها رَبْطة سابغة وصُدرة مُعلمة وعلى رأسهنَّ شريطة مذهَّبة خيطت بها قطائع من الذهب او الصُّفر فاذا مشينَ خطرنَ في مشيهنَّ كأنهنَّ بنات الملوك ولذا دعاهنَّ قومٌ من السيَّاح «باريسيَّات الشرق». الَّا ان هذه الازياء العتيقة جعل اليوم كثيرون يستبدلونها بالثياب الفرنجيَّة كما يفعل الشرقيّون في بلادنا وذلك امرٌ بلا شكَّ يؤسَف له ويذهب بشيء من محاسن تلك البلاد

ومن اخلاق اهل رومانية كَلَفهم بلغتهم وتعصّبهم لها. وكانت هذه اللغة مُعتبرة في القرن السابع عشر كلهجة عاميَّة ليس في درسها كبير امر. وكان ارباب الامر يسمون بإبطالها وينشرون بدلها اللغة السلافية. امَّا اليوم فان الرومان اخذوا في درس لغتهم وتعزيز شأنها وتنقيحها من الالفاظ الدخيلة التي تسرَّبت اليها. وليست اللغة الرومانيَّة سوى فرع من اللّاتينيَّة كالايطاليَّة والاسبانيَّة والفرنسيَّة بل هي اقرب الى اللاتينيَّة من هذه اللغات المستحدثة. وكان اصحابُها يكتبونها سابقًا بحروف سلافية وقد هجروا هذا الخطّ وبدلوهُ بالخطّ اللاتيني. ولا يزال في لغة اهل رومانية آثار من لهجة اجدادهم الداقيين وبقايا من لغات الشعوب التي خالطوها في مرّ الاجيال. وقد خُصَّت لغتهم ببعض خواصّ تفرَّدت بها كتأخير اداة التعريف والضمير على الاسم وهم يلفظون بعض الحروف لفظًا مستغربًا

في تقدمهم وترقّي الفنون بينهم

واهل رومانية ممَّن يسمون بالترقي في معارج التمدُّن الحديث فانَّ سُفُنهم مجهَّزة على الطراز الجديد لا ينقصها شيء من اسباب الترفُّه والراحة وقد بنوا لهم مرسًى واسعة بديعة تحطُّ فيها المراكب الواردة الى كُنستَنْزة (Constanza) احدى عواصمهم على ساحل البحر الاسود. امَّا سككهم الحديديَّة فتباري بحسنها سكك الدول الكبرى فترى قطاراتها تامَّة الأهبة يجد فيها السَّفْر ما يرغبون من الطمأنينة والهناء. وقد ركبناها من كنستنزة الى جاسّي مارّين بفَلْتش فكان مسيرنا فيها بأنعم بال وكنَّا نقطع بلادًا تروق العينَ مناظرها وتأخذ بمجامع القلب محاسنها

وكنّا في اثناء مسيرنا نرى السُّهول الرَّحبة الواسعة الارجاء في حالة من الخِصب لم نجدها في كثير من البلاد. والحقّ يقال انّ الفلاحة في بلاد رومانيــة قائمة على ساق يرتقي بها قسم كبيرٌ من الاهلين. وقد ادخلوا فيها الاصلاحات الجديدة التي من شأنها ان تزيد التُّربة ثروةً وزكاء كما انّهم يستخدمون الادوات المكتشفة حديثًا للزرع والحصاد والتذرية. وترى على منعطف جبالهم كرومًا تأتيهم بخمر طيّبة. ولمّا كانت بلادهم قارسة البرد في الشتــاء (فانّ ميزان الحرارة يهبط الى — ٢٠ بنيّف) وشديدة الحرارة في الصيف (يتردَّد ميزان الحرارة بين ٣٠ و ٤٠) لا بدّ لهم من التـذرُّع بالوسائل الفعّالة لئلاّ تجلد اشجارهم وكرومهم في وقت القرّ او يحرقها السموم في ابّان القيظ. وتجدُ مع ذلك في انحاء رومانية ارفاقَ شماليّ اوربّة وجنوبيّها معًا. وفي سهولها تسرح القطعـان سائمة ليلًا ونهارًا فاذا سمعتَ صفير البخار عند مروره بقربهـا نفرت فارّةً منهُ تقطع البيد سيرًا

وممّا يزيد بلاد رومانية ربعًا انّ اهلها يجتمعون على صلاح وطنهم فيُنشئون الشركات والجمعيّات ليقوموا بالاعمال العظيمة التي لا يقوى الافراد على إنجازها فيقتسمون بينهم مكاسبها كلٌّ على حَسْب شغلهِ ورأس مالهِ

ومن الاعمال النافعة التي تشهد ببراعتهم في الصنـاعة الجسر الكبير الذي مدّوهُ فوق نهر الطونة وهو يُعدُّ من العجائب ينيف علوّهُ على ٣٠ مترًا وطولهُ على ٧٥٠ وهو خمس قناطر يبلغ اتّساع القنطرة الوسطى ١٩٠ مترًا. وكلّهُ من الحديد المُصمت اصاب سالِيني (Saligny) بهندسته شهرة كبرى لجمعهِ بين متانة العمل وحسن الهندام وقد دعاهُ باسم كارلس الاوّل (Carol I)

وفي رومانية بجهات جبال الكرپاث مناجم عظيمة من غاز البترول لكنّ اهلهـا في حاجة ماسّة للفحم المعـدنيّ. وفي غضون سفرنا الاخير أُخبرنا انّ بعض المهندسين اكتشفوا منهُ طبقات واسعة من شأنها ان تغنيهم عن استجلابهِ من الخـارج. حقّق الله امانيهم

ويجوز ان تقسم بلاد رومانية من حيث محصولاتها الى ثلاثة اقسام: الاوّل معالي الجبال وفيها غابات السنديان والشربين والمعادن المختلفة. والثاني اواسط الجبال والآكام وفيها المروج يرعاها القطعان ودوالي الكروم واصناف الاشجار النابتة في اواسط اوربّة.

والثالث السهول والبساط وهي كثيرة المزدرعات نامية الغلَّات تسقيها مياه الطونة فتخصبها اي خصب

اما الصناعات العاديَّة كالحياكة والسكافة والنجارة والحدادة وما شاكل ذلك من الفنون فانَّها كثيرة في رومانية لا تخلو منها الضيعة الصغيرة. والرومان مشهورون بحياكة الانسجة الصوفيَّة والقطنيَّة حملوا بها على القناطير المقنطرة من المال

على انَّ تجارة رومانية رغمًا عن مزاحمة البلاد المجاورة لها لا تزال في نموّ وتحسُّن واكثر صادراتها القمح والدقيق والمواشي والجلود والادواف وضروب المربَّيات والحلاوات والاسماك المقدَّدة لكثرة ما يصطاد منها الصيَّادون والطنافس والانسجة والجوخ والخزف

ولرواج تجارتهم قد اقام اهل رومانية اسواقًا سنويَّة في انحاء المملكة ما عدا الاسواق الاسبوعيَّة التي تصير في كلّ بلد

حواضر رومانية

اوَّل ما شاهدنا من مدن رومانية كُنْستَنْزة السابق ذكرها. وهي مدينة حديثة لا يزيد سكَّانها على ١٢٠٠٠ نسمة الَّا انَّها واثقة بمستقبلها تملّق نفسها بحسن الاماني. وفي الواقع تراها مدينة حسنة الموقع نزهة النظر لها الاسواق والشوارع المبنيَّة على اكمل نظام وبيوتها كلُّها نظيفة بُنيت على طراز ابتدعهُ المهندسون. وفي وسط البلد تمثال اقيم لذكر الشاعر اوڤيد (Ovide) الذي قضى نحبهُ منفيًّا في هذه الاصقاع. وستضحي كُنْستَنْزة مدينة جليلة لسعة مرفإها وتوفّد فهم سكّانها ولمَّا حُفرت اساس المدينة الجديدة وقف البنَّاؤون على آثار يرتقي عهدها الى ترايان. منها الخنادق التي حُصِّنت بها المدينة وقبور قديمة وبقايا السكَّة الرومانيَّة كما انَّهم وجدوا عاديَّات كثيرة وآنية مختلفة واسلحة ونقودًا وكتابات اصطنعها الرومانيُّون في عهد توليهم على هذه البلاد. امَّا الخنادق المذكورة فقد وُجد آثارها في عدَّة امكنة والظاهر انَّ ترايان احاط بها اقليمًا كبيرًا بل مقاطعاتٍ واسعة. والعامَّة تدعو الى يومنا هذا تلك الخنادق باسم ترايان محرَّفًا (Troïan) ولا شكَّ انَّ قسمًا منها حُفر بعد هذا الملك بزمان مديد. وممَّا يُنسب الى القيصر المذكور سدٌّ عظيم اقامهُ بين نهر البروث والدنيستر لردّ غارات الاعداء والذبِّ عن وادي الطونة الخصيب. وكان عزَّز هذا السدّ بحائط ضخم لم تزل منهُ الى اليوم بقايا عظيمة يُرى منها قسم في ثغور الروسيَّة بين ليوڤا (Léova) وبندر (Bender)

ومن المدن التي دخلناها في رومانية مدة سفرنا الحديث مدينتا برِّيلة (Braila) وغَلَتس (Galatz) ولكلتيهما شأنٌ خطير من حيث السعة وحسن الموقع على ضفة الطونة وكثرة الحركة التجارية. واحدثهما عهداً برِّيلة الّا انّهما اجمل منظراً واحسن نظاماً لا يتجاوز عدد سكانها اربعين الفاً . امّا غَلَتس فمدينة قديمة تبلغ نفوسها نحو ثمانين الفاً وكانت سابقاً محطاً لتجارة اقليميّ بسارابية ومولداڤية الّا انّ امورها صارت الى الانحطاط منذ اوسعت روسيّة املاكها فبلغت حدودها الى نهر البروث وجعلت اوديسّة كمنفذ لتجارتها . وما يزيد في تقهقر غَلَتس انّ نهر الطونة يجمد في فصل الشتاء فلا يمكن للسفن ان ترسوا في مرفإها في قسم من السنة

امّا عاصمة رومانية فهي مدينة بُخارست . كانت سابقاً حاضرة الفلاخ الّا انّ ابنيتها لم تكُ اهلاً بمقامها فاخذ اربابُ امرها بتحسينها وجعلوها مدينةً واسعة الارجاء رحبة الشوارع مرتفعة الابنية كثيرة القصور والمعاهد العموميّة فصار جسمها موافقاً لاسمها ومعنى بُخارست « مدينة بهجة ترهة » . وفيها الكنائس العُظمى يعلوها قُبب مُحكمة الاتقان جميلة البنيان تميس في السماء بشُرفها وبروجها وحواليها المتشمّخة بالشمس كأنها بيضات الخدور يخطرنَ في برودهنَّ المُلمّعة . وقد ناهز اليوم عدد سكان بُخارست الثلثمئة الف ترى فيها كما في الاستانة العليّة قوماً قصدوها من كلّ انحاء الشرق والغرب ولكلٍّ منهم لبسهم ولسانهم وعاداتهم وادیانُهم الخاصّة

ومن كبار مدن رومانية جاسّي او ياسّي يبلغ عدد نفوسها مئة الف . وهي لحسن موقعها من اغنى مدن اوربّة الشرقيّة الجنوبيّة فهي قريبة من حدود الروسيّة وبجوار نهر البروث على ممرّ السِلَع الواردة من بحر البلطيك الى بحر الاسود . وكانت سابقاً عاصمة مولداڤية فلمّا اجتمعت امارة الفلاخ بولاية المولداڤ صار المقام الاوّل لبخارست الّا انّ خطارة جاسّي لم تقلّ في شيء . ولا يدخلها الداخل الّا ويحسب نفسهُ في احدى مدن الشرق لاعتدال هوائها وطريقة هندامها وتلوُّن سكانها . وممّا استحسنّاهُ في زيارة هذه المدينة كنيستها الكبرى المعروفة بكنيسة الثلاثة الاقمار فانّها حقيقة طرفةٌ من طُرف الدهر بديعة النقوش مصفّحة بالرخام الابيض فيها التصاوير الدقيقة الصُنع

ولرومانية مدن اخرى كبيرة ايضاً لم يسعدنا الحظّ على زيارتها منها بلويشتي وكرايوفا وفي كلّ منهما نحو ٤٠٠٠٠ نفس

عدد سكان رومانية ودين اهلها وآدابهم وعلومهم

يؤخذ من الاحصاء الاخير الذي جرى منذ خمس سنوات انَّ عدد سكَّان رومانية نحو ٦,١٠٠,٠٠٠ بزيادة نحو مليون على عددهم في سنة ١٨٧٨ . وهذا بلا شكّ شاهد على نجاح هذه البلاد وترقيها في الحضارة

امَّا ديانة اهل رومانية فهي كديانة الروم الارثذكس الَّا انَّ كنيستهم قائمة بذاتها لا تخضع لكنيسة اخرى وقد انفصلت عن بطركيَّة الفنار في عصرنا هذا فاضحت مستقلَّة · ورئيس اساقفتها يُلقَّب بطران المجر والفلاخ مركزهُ في بخارست يُذعن لسلطانهِ ستَّة اساقفة ومطران مقيم في جاسي

ويقوم بشؤُون الرعايا في المدن والقرى عدد غفير من الكهنة العلمانيين لا يقلُّون عن ١٠٠٠٠ امَّا الرهبان والراهبات فانَّ عددهم يُربي على ٩٠٠٠ واغلب الكهنة العلمانيين مرتبطون بقَيْد الزواج يصرفون وقتهم باصلاح شؤُونهم الزمنيَّة والعناية بعيالهم · امَّا رهبانهم فيعيشون بالاديرة يغلب عليهم الجهل والكسل وليست سيرتهم برضيَّة حتى اضطرَّت الحكومة ان تتلافى الامر بذاتها وتُعاقب من انتهك منهم حرمة الآداب

وفي رومانية حرّيَّة لكل الاديان · وقد وجدنا هنالك قومًا عديدًا من الكاثوليك قد امتازوا بتقاهم وغيرتهم · ولهم اسقفان احدهما في بخارست والآخر في جاسي

امَّا اليهود فكثيرون في رومانية لعلَّهم يبلغون فيها نحو ٥٠٠٠٠٠ نفس واغلبهم اصحاب نفوذ وغنى يرتزقون بالمتاجرة والرّبى ولهم املاكٌ واسعة يرجون منها ثروةً تُغني ثروة قارون

ومذ صارت رومانية تنافس الدول المجاورة لها شرعت في بناء المدارس الكبرى والمكاتب العلميَّة لتدريس كلّ العلوم والمعارف الشائعة في زماننا وهذه المعاهد اشبه بالقصور منها بمقامات العلم · والحكومة المحليَّة في برنامجها السنويّ تخصّص لمدارسها مبلغًا عظيمًا تُنفقهُ على اساتذتها · وترى الشبَّان يقبلون على درس هذه العلوم ليفوزوا بشهادة تفتح لهم ابواب المراتب والفنون كالطبّ والشريعة وما شاكل ذلك · بل يؤذن للنساء ايضًا ان يقدمنَ فحصًا فينلنَ بذلك حقوق الرجال · وفي هذا تساوي الحقوق ما لا

يخفى من العيوب كيف لا وهو يُخرج النساء عن مرتبتهنَّ في الهيئة الاجتماعيَّة وقد خلقهنَّ الله لتربية ابنائهنَّ والقيام بامورهنَّ البيتيَّة

فيظهر ممَّا سبق انَّ رومانية لا ينقصها شيء من اسباب الترقي المادّي والعلميّ الَّا انَّهُ يسوءنا القول انها في تقهقر من حيث الدين والآداب. فانَّ الشعائر الدينيَّة قد خفَّت في القلوب لاسيما في شبَّانها الذين يتشرَّبون منذ حداثتهم روح العصر الجديد لا يبالون بدين ولا يعتبرون لسلطان. واذا لم يستدرك اولياء الامر هذا الخلل لاتَّسع الخرق صان الله تلك البلاد وصاننا ايضًا من روح الثورة والالحاد فانَّهُ من المقرَّر انَّ بالدين وحدهُ تقوم الدول وتزهو الممالك ويعزُّ السلطان ويعلو منار الامَّة في كلّ الاوطان

كتاب تاريخ بيروت

لصالح بن يحيى (تابع لما سبق)

ومن شعر محمد الغزّي المذكور قولهُ في ناصر الدين الحسين:

يا مَجلس الجود والاحسان والكرمِ · جادت عليكَ سحابُ العزّ والنِّعَمِ
ودمتَ وَقفًا على مستمطرين ندى · يدِ الحسينِ بن خُضر الطاهر الشيَمِ
تسعى الى بابك العالي الوفودُ فلا · عَدَتْ جنابكَ من عُربٍ ومن عجمِ
ساد الاميرُ ثناء حين شاد لهُ · بناء ذكرٍ كثير الشكر في الأممِ
ما غَربُ بيروتَ الَّا مشرقٌ طلعتْ · منهُ شموسُ النَّدى والسيفِ والقلمِ (٢:٤)

وللغزّي في ناصر الدين مدائح كثيرة طويلة تضيقُ هذه التذكرة عنها ولا بأسَ بذكر النَّزر اليسير من بعضها. ولهُ من قصيدة افتتحها بقولهِ:

وصلت من بعد هجرٍ · ووفتْ من بعد غدرِ
ورعتْ سالف عهدٍ · مرَّ في سالفِ دهرِ

الى ان قال:

غادرتْ غدرانُ دمعي · سُحبًا في الخدّ تجري

كأيادي ناصرِ الدينِ بن سعدِ الدينِ خضر
حسنُ الأخلاقِ والخَلْقِ لدى عسرٍ ويسرِ
عِرضهُ بالجود والإحسانِ في صونٍ وسترِ
قد طوى حاتم طيٍّ نشرهُ في كلِّ عصرِ
غربهُ مشرقُ فضلٍ مشرقٌ بكلِّ بدرِ

ولهُ من قصيدة:

لو أقسم الجودُ انَّ اكثرهُ في ناصر الدين برَّ في قسمهْ
خيرُ اميرٍ عشيرةً وحمىً ينجو بهِ مَن المَّ من المهْ

ولهُ ايضًا في مدحه:

ليثُ ردىً غيثُ ردى متلفٌ لو حاز يومًا مالَ قارونِ
عوَّد كفَّيهِ ببسطٍ فلم يقبضْ سوى ابيضَ مسنونِ
بمالهِ حسنَ الثنا يشتري وليس في ذاك بمغبونِ

ومنها:

من معشرٍ قحطانُ جدٌّ لهم ذكرهمُ في الهندِ والصينِ (62)
تُنمى الى النعمان أنسابُهم من طيِّءٍ شمِّ العرانينِ

ولهُ من قصيدة:

واترلْ باعتبهِ تجد قريةً تقرُّ عينَ الضيفِ والزائرِ
فأتي عصا الرحلةِ مستبشرًا في ظلِّ نادٍ بالنَّدى عامرِ
وناصرَ الدينِ اعتمدهُ تجد ملءَ القلوبِ فيهِ والناظرِ
فانَّهُ المولى الذي فضلهُ أصبحَ مثلَ المَثَلِ السائرِ
ومن غدا وابلُ معروفهِ وقفًا على الواردِ والصادرِ
مولىً بهِ الغربُ غدا مشرقًا لكلِّ فضلٍ باهضٍ باهرِ (63)

ولهُ من غيرها:

جارهُ (١ جاراهُ يومًا فغدا حسدًا مضطربا في الجانبينِ
رام يحكي علمهُ او جودهُ اين للبحر بلوغُ الغايتينِ

١) جاء في ذيل الكتاب: « اراد بجاره البحر »

آلُ عبدِ اللهِ في عزٍ بهِ   وسموٍ كسموّ الشِعْرَيَيْنِ
انجمٌ والغربُ شرقٌ لهمُ   وابنُ خضر وابنهُ كالنيّرَينِ

وقال في بني الغرب:

فهمُ شهبٌ احاطت ببدرٍ   بل بشمسٍ في سما الجودِ تجري
بين عزٍ وصلاحٍ وفتحٍ   لم يزل يسمو باشرفِ ذكرِ (١

وللعزّي تهنئة لناصر الدين عند عودتهِ من الكرك (63ʳ):

بكم اشرقت بعد الظلامِ ديارُ   واضحى عليها هيبةٌ ووقارُ
واصبح فيها الانسُ من بعد وحشةٍ   وهل بِسوى الاحبارِ تشرقُ دارُ
سماءُ علا فيها اضاءت بدورُها   فلا نالها بعد الظهور سرارُ (٢
وما هي الّا دوحةٌ واميرُها م   الحسينُ بن خضرٍ للغصونِ ثمارُ
اميرٌ لهُ من أسد خفَّانَ عصبةٌ (٣   تُزانُ بها غاباتُها وتُزارُ
همُ الروضةُ الغنّاء باكرها الحيا   لأزهارها في المكرماتِ قرارُ
همُ في اللقا نارٌ تسعَّر بالظُبا   وهم في النّدى للقاصدين بحارُ
وهل لامير الغرب في الشرق مُشبهٌ   اذا ما رحى الحرب الزَّبونِ تُدارُ
بتدبيرهِ والرأي بُلغتِ الْمُنى   رجالٌ لها حُسن الثناء شعارُ
وعادوا على رَغم العدى لديارهم   بخيرٍ كما للجفْن عاد غِرارُ
ايا آلَ عبدِ الله إِبنا نجيبهم   ومن لهمُ ماء السماء نجارُ
تنوخ بن قحطان بن عوف بن كندةٍ   لهم بكمُ عزٌ علا وفخارُ
بحيثُ حللتم كنتمُ الشمس اشرقتْ   ولا ليل الّا بالضياء نهار
فلا زالت الأيّامُ طوعاً لامركم   تُسرُّ بكم دارٌ ويُكرَمُ جارُ (63ᵛ)
ولا زلتمُ مثلَ الاهلّةِ في السما   اليكم بأطرافِ البنانِ يُشارُ

(ستأتي البقيّة)

---

١) جاء في ذيل الكتاب: « يعرّض بذكر اخوته الاربعة وهم عزّ الدين حسن وصلاح الدين يوسف وفتح الدين محمّد وشرف الدين سليمان

٢) السرار ان يكون القمر مختفياً (حاشية المؤلف)

٣) خفَّان اسم موضع يضرب باسوده المثَل

السفر العَجب الى بلاد الذهب

للاب اميل ريتو اليسوعي (تابع لما سبق)

قد وقفت ايها القارئ اللبيب على اصل ميس جني وفصلها في ما سبق. وقد قلنا انَّ زوجة نسيب كانت منكبَّة على المطالعة لمَّا قرع عليها الباب زوجها قافلًا من نيويرك فاطلَّت من الشبَّاك لترى من الطارق فاذا بمستر نسيب ومعهُ غريب كامد اللون منكر الهيئة فقالت: «هوذا نسيب قد عاد من السفر ولكن تُرى من هذا الصعلوك الذي اتاني بهِ فبئس الهيئة هيئتُهُ»

وكان المستر نسيب في اثناء ذلك رقي سُلَّم الدار وفاضل يلحقهُ فصرخ: «اسعد الله صباحك يا جني»

— وصباحكَ ايضًا يا نسيب. ولكن ما وراءك يا صاح كأنّي بك كاسف البال كئيب القلب. قُل لي من هذا الغريب الذي يصحبك ؟

وبينا تقول هذا اذ اقترب اليها فاضل مسلّمًا فحنت جني برأسها قليلًا تردّ عليه سلامهُ. فقدَّمهُ لها نسيب قائلًا:

— هو احد اصدقائي أتيتُ بهِ من نيويرك

فعبست جني ولم تُبدِ حراكًا. ثمَّ اخذت بيد زوجها وادخلتهُ في مخدعهِ وتركت فاضلًا في رواق الدار فلمَّا صارت وحدها مع نسيب انتهرتهُ قائلةً:

ومن هذا الصديق المزعوم ؟ ما اسمهُ وأَنّى وجدتهُ ؟ ولمَّا تردَّد نسيب في الجواب رفعت امرأتهُ بصوتها كأنها تزجره:

— أتُرى بيتنا خانًا يحلُّ بهِ كلُّ ابناء السبيل ؟

فتلجلج نسيب قائلًا: انهُ رجلٌ مسكين. . . كان موشكًا على الموت. . .

إذن دارنا مأوى نضيف فيها الصعاليك من الناس وهرش لهم كأنَّ مدينتَي نيويرك وسان فرنسيسكو تخلوان من الآوي يتزلها اهل الكُديَة. فنعمًا فعلت. وما اسم صديقك ؟

— يُدعى فاضلًا

— زِهْ زِهْ. لا اعهدهُ الَّا احدًا من مواطنيك السوريّين ضربَ في الارض فاحتلَّ

بلادنا يطلب المعاش. ما احتك على اوباش قومك. ولكن اني ساكفلُ به واذا قضت الحاجة سأكلمهُ بلسانهِ العربيّ

وكان فاضل في غضون ذلك واقفًا يتسمّع من خصاص الباب. ومع انهُ لم يتقن بعدُ الحكي بالانكليزية كان مع ذلك يفهم منها ما يكفيهِ لاموره

فلمّا طرق مسامعهُ كلام ميس جني علا جبينهُ الاحمرار وفارت في قلبهِ مراجل الأَنفة. كيف لا وهو كبير ضيعتهِ كان يكرّمهُ اهلها ويعتبرونهُ بينهم كأنهُ سيّدهم وهاك الآن امرأة غريبة تعيّرهُ باصلهِ وتبخس شأنهُ وتسومهُ الذلَّ الوانًا وتعتبرهُ كأنهُ احد صعاليك الازقّة لا يستحقُ ان يُقبل في دار اناس مهذّبين

فاطرق فاضلٌ مفكّرًا في امرهِ. تُرى ما العمل أيبقى في هذه الدار صابرًا على الذلّ والهوان. او ليس الاولى بهِ ان يخرج عزيزًا شريف النفس ولكن الى اين يذهب وليس في كيسهِ فلس يبتاع بهِ لقمة من الخبز ليسدَّ بها جوعهُ

وفيما كانت هذه الافكار تشغل عقل فاضل علا صخبُ الميس جني وزاد تبكيتها لزوجها حتى ارتعدت فرائص الوافد المسكين وخاف ان تخرج اليهِ وتأمر الخدم بان يزجُوهُ في الزقاق ليموت فيهِ جوعًا

وفي واقع الحال انفتح الباب بعد هُنيهة وخرج اليهِ نسيب بغتةً وعيناهُ تتّقدان في محاجرهما فقال لفاضل: «اتبعني» ولم يزد على ذلك شيئًا

فظنَّ المسكين سوءًا وتلا الدرج خلف نسيب وهو متيقّن انهُ سيُلقي بهِ خارج الدار بلا نصير ولا معين ليتخلّص من ملامة زوجتهِ الصخّابة. فتواردت على بال فاضل كلُّ الاخطار التي دكبها وكلّ الاهوال التي قاساها ولمّا كان يحسب انهُ نال برغوبهِ رأى نفسهُ في بليَّةٍ أشدّ من البلايا السابقة عرضةً لنوائب الدهر وصروف الليالي في مدينة كبرى لا يعرف فيها احدًا يمدّ اليهِ يد المساعدة

فأثّرت هذه الهواجس في قلب فاضل ايّ تأثيرٍ ولمّا لم يزل بعدُ منهوكًا من اوجاعهِ الشديدة التي لقيها في نيويرك كانت هذه الضربة الجديدة لازبةً قاضية. فخطا بعض خطوات في اثر نسيب وسقط على الارض مغشيًا عليهِ

امّا نسيب فكان يواصل سيرهُ الحثيث ويرى انّ فاضلًا يتبعهُ. فالتفت بعد قليل فلم يشاهدهُ فتعجّب ونكص على اعقابهِ ليطلبهُ فوجدهُ على الحضيض دون حراك

فاسرع نسيب الى اهل داره واتى بهم من ساعته فاحدقوا بفاضل وحملوهُ كأنهُ ميتٌ الى الدار وأضجعوهُ على فراش وصبُّوا على جبهته ماء باردًا ثم فركوا اعضاءهُ فركًا عنيفًا الى ان فتح عينيه بعد مدَّة

فاقترب اليه نسيب ليرى حالتهُ فسمعهُ يردّد بصوت ضعيف:

من انت ? من انت ?

— أفلا تعرفني ? انا صديقك نسيب .

— نسيب . . . نسيب الذي طردني من بيته . . . انقلوني من هنا . . . لا اريد ان اسكن في هذا البيت . . . ومن كلّ هؤلاء الذين حول فراشي . . . اواه اظنُّهم نقاروني الى المستشفى لأموت مع الفقراء وتُشرَّح جثتي . . .

قال هذا وأُغمي عليه ثانيةً . فوضع نسيب يدهُ على جبهته فاذا وجههُ يتلظَّى نارًا فارسل بعض الخدم يستقدم طبيبًا لعلَّهُ يرى لمرضه دواء

فوصل الطبيب بعد قليل وسأل عن حال العليل وقصَّته . فلمَّا وقف على خبر غرقهِ جسَّ نبضهُ مرارًا فقال:

انَّ حالة المريض تُنذر بخطر عظيم فانَّهُ قضى ليلةً كاملة وعليه ثيابٌ مبلولة في شدَّة البَرْد فإنّ هذه الحمّى الخبيثة الّا نتيجة مصيبته الاولى ولعلَّ صدرهُ ايضًا قد أُصيب بداء عقام

فلمَّا سمع اهل الدار قول الطبيب وجموا ساكتين . وبقي مستر نسيب في حيرة وقلق لاسيما بعد كلام فاضل ينسب اليه انَّهُ اراد طردهُ . ولم يكن نسيب فكَّر في طرده بل لم يظنَّهُ سمع كلام امرأته الجافي . وكان خرج ليتزلهُ في حجرة يأجرها لهُ فيسكنها بضعة أيام قبل ان يسافر كلاهما الى معادن الذهب في كاليفرنية فيشتغلا كثير يكين فيها . امَّا فاضل فتأوَّل افكار نسيب بخلاف الصواب وعزا اليه ما كان براء منهُ فأصيب ببليَّة جديدة لا مناص لهُ منها

فالتفت نسيب الى الطبيب وسألهُ بصوت متخافت: «وما رأيك في مريضنا ياجناب الدكتور» فحرَّك الطبيب رأسهُ قائلًا: مالك تسألني ألا ترى انَّهُ على شفا المنيَّة ?

قال هذا وخرج مودّعًا (ستأتي البقيَّة)

مطبوعات شرقية جديدة

ARABIC-ENGLISH DICTIONARY
for the use of students
By the Rev. F^r J. G. Hava, s. j.
Beyrut Cath. Press 1899, pp. XIV-910
الفرائد الدريّة في اللغتين العربيّة والانكليزيّة

انَّ ما حظيَ بهِ من القبول قاموس حضرة الاب يوحنَّـا بلو لدى المستشرقين الفرنسيين حمل المطبعة الكاثوليكيَّة على وضع تأليف آخر شبيهٍ بهِ في اللغتين العربيَّة والانكيزيَّة فوكلت الى الاب يوسف جبرائيل حوّاء هذا المشروع المهمّ. فتحفَّز لهُ وقام بهِ احسن قيام رغمًا عن العراقيل التي تصدَّت لهُ في اعطاف شغلهِ حتى انجزهُ بالعمل واتى بهِ وفق المرام. ومن قابلهُ بتأليف الاب يوحنَّا بلو وجدهُ جامعًا لمحاسنهِ يجاريهِ في سعة موادهِ وبيان شروحهِ ونضارة حروفهِ. ولعلَّهُ تفرَّد بان شرح الالفاظ العلميَّة بما يوافقها من المفردات الاصطلاحيَّة عند علماء اوربَّة. وفي آخر الكتاب جدول الالفـاظ الدخيلة في العربيَّة المنقولة من اللغات الاجنبيَّة مع دلالة الفاظها الاصليَّة. ولا يخفى ما دون هـذا الشغل من المشاكل اللغويَّة. ولا غرو ان كان المؤلّف وهم في بعضها كاشتقاقهِ مثلًا لفظة الخوري من (ἱερευς) بدلًا عن (χωρεπίσκοπος) وفلس من (ὀβολός) بدلًا من (φόλλις) كما أنَّنا لا نظنّ ان لفظـة مطران اشتُقَّت رأسًا من (μητροπολίτης) بل من (metropolitanus) وبلّان من (βαλανεῖον) لا من (balneum) توًّا. غير انَّ هذه الملاحظات لا تكاد تُخلّ بعظم فوائد هـذا التأليف ولا شكَّ في انَّ طلبة اللغة العربيَّة من الانكليز يتلقَّونهُ بالثناء الطيِّب والشكر الحميم   ه. ل

CONTRIBUTION A L'ÉTUDE
du dialecte néo-syriaque du Tour-Abdin
par M. D. J. Parisot, pp, 20

قد شُغف حضرة الاب باريزو البنديكتيّ بدرس السريانيَّة ولهجاتها المتفرّعة منها. فانَّهُ حفظهُ الله نشر اوَّلًا اعمال القديس افرهط كاتب القرن الرابع للمسيح ونقلها الى اللاتينيَّة فكسب بذلك ثناء المستشرقين. وفي العام الماضي صنَّف كتابًا واسمًا في لهجة معلولا والضياع المجاورة لها. وهو اليوم يتحفنا بتأليف آخر يشهد عن طول باعهِ في معرفة

خواص اللغات السريانيَّة المستحدثة ألا وهي لغة طور عابدين الذي موقعهُ في شمالي شرقي ماردين يسكنهُ اليعاقبة · فجمع حضرة المؤلف كل ما امكنهُ من دقائق هذه اللغة وقد اسعدهُ الحظ بان يجتمع في حمص بسيادة المطران غريغوريوس عبدالله الصددي الجزيل الاحترام فاخذ عنهُ فوائد شتَّى نظَّمها في سلك هذا التأليف على طريقة الكتب النحويَّة يبحث فيه عن الاسماء والافعال والحروف وقد ألحقهُ بمجموع ألفاظ وعبارات ومقاطيع من شأنها ان تبيّن دقائق هذه اللغة كما هي شائعة في ايامنا

هدايا أُرسلت الى إدارة المشرق

لا تزال ترد علينا القصائد الرنَّانة التي رُفعت لمقام السُدَّة البطريركيَّة المارونيَّة بنسبة ارتقاء غبطة الحبر الهمام والعلاَّمة الملفان السيد الياس بطرس الحويّك منها رقيم افرنسي لجناب الفاضل يوسف افندي ابي سمرا غانم مع قصيدتين عربيتين لهُ ولجناب اخيهِ ابراهيم افندي · ومنها ايضًا قصيدة عامرة الابيات للاديب يوسف افندي غنَّام ثابت

شَذَرَات

تحليل الحامض الكربونيك — قلنا في العدد السابق ان الدكتور جوبار ولابورد اتصلا الى تركيب جسم كيموي يتشرَّب الحامض الكربونيك في المخادع المقفلة فينقّي الهواء من هذه المادَّة السامَّة غير انَّ المكتشفَين لم يبيحا بسدّ بسرِّها · وقد جاراها استاذان آخران افرنسيَّان ديغري (Desgrez) وبلتصار (Balthazard) فاكتشفا مادَّة جاهرا باسمها تفي بالمرام وتحلِّل ايضًا الحامض الكربونيك وهي بيوكسيد السوديوم (bioxide de sodium) وهي مادَّة ذات لون ورديّ اذا ذُرَّ منها شي · في الماء تحلَّلت فتشرَّبت الحامض الكربونيك وحوَّلتهُ الى كربونات الصودا · ولهذا الاكتشاف شأن كبير لانَّهُ يمكّن السُفُن الحربيَّة الغوَّاصة من ان تبقى زمنًا طويلًا تحت المياه دون حاجة الى تغيير هوائها

الشعاع الاخضر — ورد ذكر هذا الشعاع في كتب الطبيعيَّات وهو الشعاع الاخير الذي تشعُّ بهِ الشمس عند تواريها في البحر يُرى ذلك في بعض فصول السَّنة اذا ما كان الأفق صافيًا · وكان الطبيعيُّون يعلّلون ظهور هذا الشعاع بتوهمهم انَّهُ ينتج من

امتزاج حمرة الشمس بزرقة ماء البحر . الا ان الاستاذ تركان (Turquan) اثبت مؤخرًا في مجلّة باريس العلميّة انّ هذا الشعاع ناتج عن انعكاس نور الشمس عند غيوبها في البحر فيتحلّل النور الى الوان الطيف السبعة المعروفة فلا يظهر منها الّا الاخضر لسطوعه . وبيّن ايضًا ان هذا الشعاع يسطع في اوّل ظهور الشمس كما في غروبها وذلك ليس فقط في البحر بل ايضًا في ما سواه من الاماكن كالسهول والجبال عند كيان الشمس في الأفق

عدد العُور — ممّا يثبت ان عدد العور في الدنيا كثير ما يُصطنع في معامل اوربّة من العيون الزجاجيّة تركّب في الحجاج فتخفي هذا العيب عن النظر . ففي السَّنة المنصرمة قد جهّزت المانية وحدها مليونين من هذه العيون المُصطنعة . فاذا استثنينا منها قسمًا يتّخذ لتصبير بعض الحيوانات وجدنا انّ فقد البصر داء فاش بين كثير من البشر انار الله ابصارنا وبصائرنا

اكتشافات مصريّة جديدة — لم تبرز لنا مصر الى الآن غير قسم من ذخائرها العلميّة المودعة في بطن ارضها ولا يمرّ يوم على اصحاب العاديّات دون ان يعلنوا لعالم العلم اكتشافًا جديدًا . وممّا وُجد مؤخّرًا ثلاثة الواح رسم عليها كتبة المصريين في قديم الزمان صورًا تمثّل حروبًا وصيدًا وبين الاشخاص صورة ملك من السلالة الثانية او الثالثة امّا هيئة التصوير فتشبه الصُوَر المكتشفة في بابل والراقية الى القرن الثلاثين قبل المسيح . ومن جملة هذه التصاوير صورة اسد عنقه كعنق الحيّة قوبلت بصورة أُخرى محفوظة منذ سنة ١٨٧٧ في متحف اللوفر في باريس نُقلت اليه من بابل فاذا بالصورتين يتشابهان شبهًا تامًّا . فاستنتج العلماء من هذه المقابلة انّ التمدّن الاوّل في مصر اتاها من دولة اسيويّة استوات على وادي النيل وانّ الدول المصريّة الاولى هي دول ساميّة . ومكتشف هذه الالواح هو العلّامة الانكليزي كويبل (Quibell) . ومن اكتشافاته الحديثة التي احرزت لهُ شهرةً عظيمة بين اماثيل العلماء وقوفهُ على تمثال ثاني ملوك الدولة السادسة يدعى بابي الاوّل ويعرف ايضًا بريريع (Pepi I Mériri) . وهذا التمثال من الشَّبَه (البرنز) وجد في اخربة الكوم الاحمر حيث كان معبد قديم للمصريين يرتقي عهدهُ الى الدولة الثانية . وبابي المذكور من اعظم الفراعنة شأنًا واعزّهم سلطانًا واوسعهم مُلكًا فتح التخوم السوديّة المجاورة لمصر وبلاد النوبة وليبية . وفي متحف الجيزة جثّة ابنه « ميريتيرع سوكار مساف » محنّطة

أسئلة وأجوبة

س كتب لنا الاديب يوسف افرام البستاني: «انهُ من نحو مائة سنة ونيف ولم يزل حتى الآن يظهر ضوء اغلب الليالي يتنقّل من محلّ الى آخر في سليخ موجود قبلة دير القمر وسمّاهُ آباؤنا واجدادنا الشقيف المذبي. فارجو الافادة اذا كنتم تعلمون منهُ شيئاً

ج لا يمكن الجواب القطعي على هذا السؤال الّا اذا افادنا جناب الكاتب عن صفة الارض التي تظهر فيها هذه الظواهر هل يوجد فيها شيء من المعادن او هل كانت سابقاً مقبرة فانهُ ربما ينبعث من الاراضي التي فيها مزيج الفحم بالهيدروجين الغزّة تلتهب في الهواء. وكذلك يخرج من جماجم الموتى مواد فصفورية تتقد بمجرد مسها الهواء.

س وسأل حضرة الاب الخوري بطرس الدكاش بايّ لغة كان يتكلم اهل فلسطين منذ الجيل الثالث الى السابع وبايّ لغة كان يكرز بها كهنة الرعايا

لغة اهل فلسطين

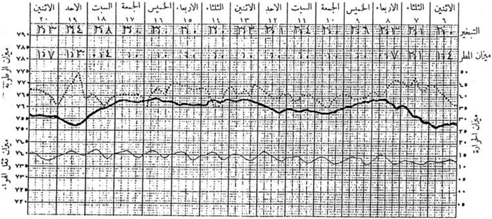
ج كانت لغة فلسطين في القرن الثالث الى السابع اللغة الآرامية المعروفة بالسريانية الفلسطينية وهي كانت الشائعة بين العامة في قراها بل وفي مدنها ايضاً. الّا ان اللغة اليونانية انتشرت بين الاشراف واواسط القوم في المدن الكبرى. وكان ارباب الدين يتبعون في كرازتهم لغة رعاياهم. ومما اخبرت به القديسة سلفيا في اواسط القرن الرابع ان اسقف اورشليم كان يعظ باليونانية فيترجم عظتهُ احد الكهنة بالارامية ليفهمها الجمهور ل. ش

س وسُئلنا ما المراد بالكتاب الاصفر والكتاب الازرق الذي يرد ذكرها في الاخبار التلغرافية والروايات السياسية

الكتاب الاصفر والكتاب الازرق

ج يراد بالكتاب الاصفر مجموع الكتابات السياسية التي تدور بين الوزراء والسفراء واصحاب الامر في فرنسة ينشرونها بالطبع ثم يعلنون بها لمجلس الشيوخ ودار الندوة. ولُقّب بالاصفر لانهُ يُغلَّف بغلاف اصفر اللون. يطبع منهُ الفا نسخة ولا يُباع في المكاتب. امّا الكتاب الازرق فهو خاصّ بانكلترة واحوالها السياسية وهم يسمحون ببيعهِ. وللالمانية كتاب ابيض يبحث عن احوال مستعمراتها ويوزّع على اعضاء الريكستاغ ولايطالية كتاب اخضر ولليونان كتاب احمر. ولا كتاب لاميركة والنمسة والروسية ه. ل

قائمة للآثار الجوّيّة من ٦ الى ٢٠ شباط ١٨٩٩



انّ الخطّ الضخم (——) يدلُّ على ميزان ثقل الهواء المعروف بالبارومتر – والخطّ الرفيع المتتابع (——) على ميزان الحرارة (ترمومتر) امّا الخطّ المنقَّط (.....) فهو دليل على ميزان الرطوبة (هغرومتر) – والاعداد الدالّة على درجات ثقل الهواء تدلّ ايضًا اذا حُذف منها عدد المئات على درجات الرطوبة وقد عُيّن التبخير وميزان المطر في ٢٤ ساعة بالمِلمترات وعُشر المِلمترات